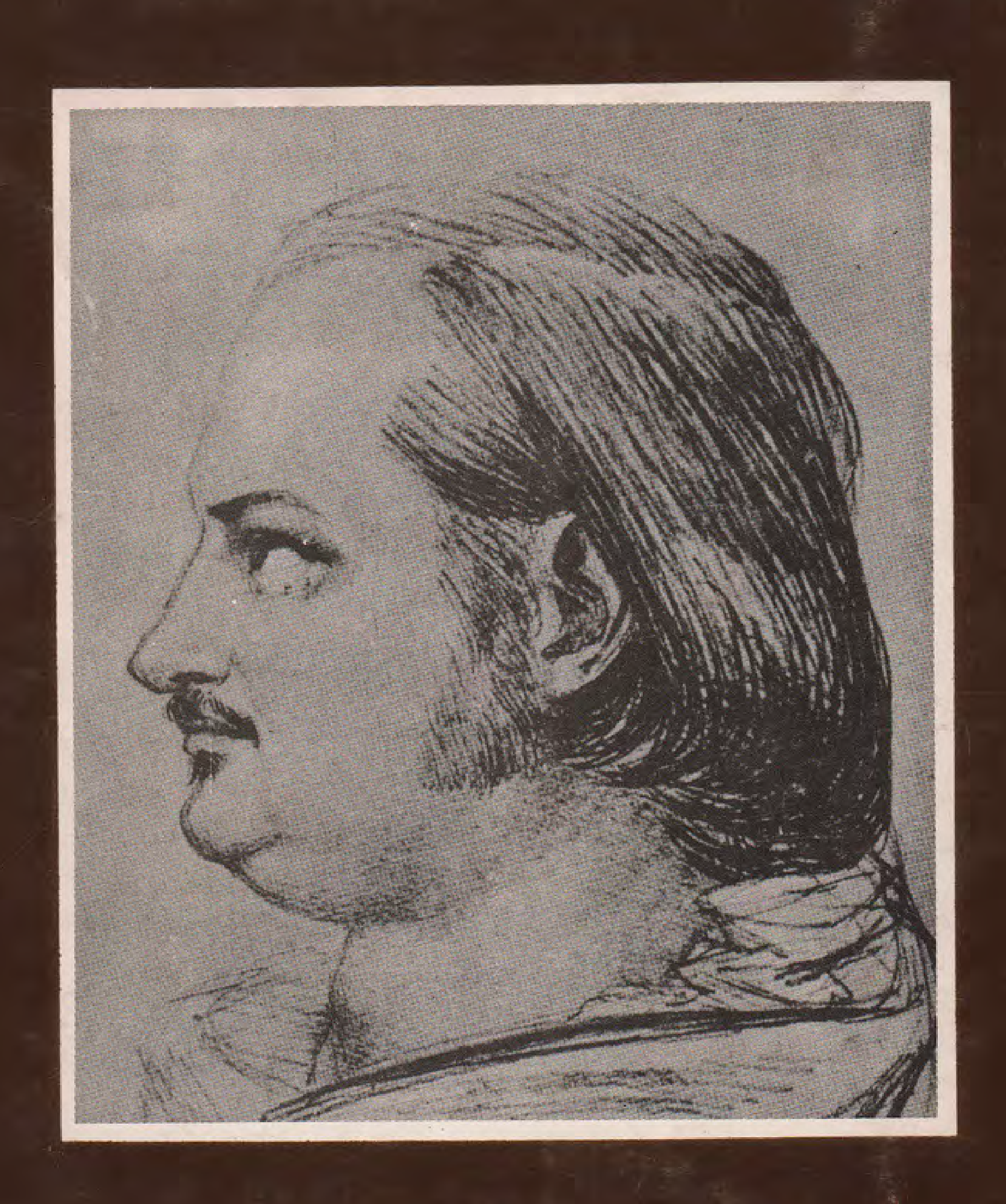
بلزاك

الملهاة الانسانية



الممثلون الغافلون

دراسة طبائع
صور من الحياة الباريسية

ترجمة
صلاح الدين برمدا

روايات بلزاك
٩

روايات بلزاك

« ٩ »

بلـــزاك

الملهـاة الانسـانيـة

الممثلون الغافلون

دراسة طبائع

صور من الحياة الباريسية

ترجمة : صلاح الدين برمدا



العنوان الأصلي للكتاب :

BALZAC

LA COMEDIE HUMAINE

ETUDES DE MOEURS

LES COMÉDIENS SANS LE SAVOIR

الملهاة الانسانية: دراسة طبائع: صورمن الحياة الباريسية = Le comedie humaine / بلزاك ؛ ترجمة صلاح الدين برمدا . ـ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٣ . ـ ١٢٤ ص ؛ ٢٤ سم . ـ (روايات بلزاك ؛ ٩) .

المحتوى : الممثلون الغافلون . ـ بأوله دراسة حول القصة والمؤلف من اعداد آن ماري منينجه وترجمة ميشيل خوري .

١ ـ ٨٤٣ ف بلز م ٢ ـ العنوان الأول ٣ ـ العنوان الموازي ٤ ـ العنوان الثاني ٥ ـ بلزاك ٦ ـ برمدا ٧ ـ منينجه ٨ ـ خوري ٩ ـ السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ـ ٥٤ /١/١٩٩٣

دراسة حول القصة والمؤلف

اعـداد : آن مـاري منينجـه
ترجمة : المهندس ميشيل خوري

« لقد عرف **الممثلون الغافلون طريق النجاح** » كتب بلزاك الى السيدة هانسكا في ٣٠ أيار ١٨٤٦ . لكن ناقدي بلزاك لم يتطرقوا الى هذا النجاح بل اعتبروا هذا النصّ عملية « جمع » هيئت دون اهتمام بفعل الصدفة أو الضرورة ، انطلاقاً من مقالات كتبت من أجل **الشيطان في باريس** ، والحال أن بلزاك أراد هذا الجمع وتصوره قبل أن يخط أول سطر من أول مقالات **الشيطان في باريس** التي تشكل بعض هذه المشاهد ، ولهذا الجمع معنى يبينه العنوان المضاعف الذي اختاره بلزاك ـ **ممثلون غافلون** من اجل طبعة **الملهاة الانسانية** ، **وريفي في باريس** من اجل الطبعة المستقلة ـ مما يهدي الى السبب وينبه القراء الى أنهم سيجدون في هذا المؤلف في آن واحد ممثلين وهميين من عالم **الملهاة الانسانية** وممثلين حقيقيين من العالم اليومي ، والواقع أن العنوان « **ريفي في باريس** » وحده يسلط الضوء على وجهي العمل اللذين حجبهما نقص التشويق اذ أنه قد استخدم سابقاً بنجاح ، وهو يعود الى نوع محدد مألوف : دليل باريس .

في العام ١٨٢٥ صدر مؤلف **ريفي في باريس** لمونتينيي ، في ثلاثة أجزاء وعرف نجاحاً كبيراً بحيث تحدد له عمل متمم منذ العام التالي بعنوان ، **نبذة عن الطبائع الباريسية** وهو عنوان لم يغب أبداً عن بال بلزاك ، كما أن مونتيني باختياره هذا العنوان ، قد وضع مؤلفه دفعة واحدة ، في الخط الأكثر شهرة في هذه السلسلة : **ريفي في باريس** الذي نشره واترن في ١٧٨٧ في أربعة أجزاء وبلغ من نجاحه أن أعيد طبعه حتى العام ١٨٠٥ خمس مرات ، وهذا المؤلف قد أطلق صنفاً خاصاً من الدليل يختلف عن المخططات المحددة سابقاً باسم **بيانات تطواف**

أو **معاجم أو شروح عن باريس** ، كانت تقليدية بشكل ممل منذ القرن السابع عشر وحتى أيامنا ، **وريفي في باريس المنشور في ١٧٨٧** ، أو **ذلك الذي نشر في ١٨٢٥** ، **أكثر اتجاهاً ادبياً** ، **ودلالة ذاتية** ، **ومتعة** ، يعرض نوعاً من « رحلة الاكتشاف » لباريس ، يقوم بها ريفي لا يعرف المدينة الكبيرة ، فيأخذ في تعداد مدهشاتها ومثيراتها وحرارتها أيضاً .

تحت هذا الشكل ، أو بأشكالها التقليدية ، عرفت كتب دليل باريس بوجه خاص ، فترات ازدهار ، منها النجاح الذي عرفه ناسك **شوسيه دانتين** لجوي في نهاية الامبراطورية ، واستفاد منه **ريفي في باريس** بعد عودة الحكم الملكي منذ ١٨١٩ ، ثم في ١٨٢٥ ، ورحلة **پول برانجه في باريس بعد غياب خمسة واربعين عاماً** لجاك كولن ، وهو من يعرف باريس كسميه البلزاكي وأيضا **رحلة في باريس** أو **نبذة عن البشر والأشياء في تلك العاصمة** للمركيز لويس رينيه لانفرانشي التي خصصت لها **سلسلة الصحف السياسية** تقريراً مطولا يبدو أن كاتبه هو بلزاك بالذات . **خلف ثان** ، **أكثر** وضوحاً أيضاً ، ظهر قبل التصور الاول في ١٨٤٤ لمؤلف بلزاك المستقبلي **ريفي في باريس** ، فبدلا من **الفيزيولوجيات** اكتشاف غازونال التي لم تكن هذه القصة سببها الاول في العام ١٨٤٢ مؤلف **باريس الرائعة** لسان ـ ادم وسارو ومع **المدينة الكبرى** ، واستمرت في ١٨٤٣ **مع شوارع باريس** ، **ومع مجانين باريس** ، **نماذج غريبة تتمثل بقزم حصيف** للورين ونوديه ، ومئة آخرين،ومع **شيطان في باريس** التي بدأ نوديه يسعى لمشاركة بلزاك فيها خلال شهر كانون أول تظهر رحلة اكتشاف غازونال التي لم تكن هذه القصة سببها الأول شارك بلزاك **في شوارع باريس** ، **هذا المشروع المنسي في الوقت الحاضر** لم يفت زملاء ذلك العصر ، فألبريك سكوند مثلا يقص **في درج الذكريات**، بتزويقاته **المعتادة** ، **كيف أن الناشر** ج.كوجلمان الذي كان يحضر مع لويس وربن كتابه الجميل **شوارع باريس** طلب من بلزاك المشاركة في ذلك وقد عرض بلزاك ان يكتب عن شارع ريشليو . وكيف أنه بعد اخفاق المشروع طالب **بخمسة الاف فرنك** لقاء نصف ملزمة معدة للطباعة « **اذ كيف** يمكنني **أن اتحدث عن** شارع ريشليو ، وأية فكرة أعطي عن مظهره التجاري ، **اذا لم أزر مختلف** الصناعيين الذين يسكنونه واحدا بعد **الآخر !** »

إذا كان جزء من القصة ناتجاً عن الأقاويل ، فان عرض كوجلمان مؤيد على الأقل بصفحة عنونها بلزاك « شارع ريشليو أو رحلة اكتشاف منفذة خلال سنتي ١٨٤٢ و ١٨٤٣ ، بدءا من رأس دويانه ، وعبر سبخة كاروسل ، حتى الرأس الشمالي لفراسكاتي ومنه الى شارع ريشليو ، تحت رعاية أحد الامراء ، والمعدة من قبل السيد دي بلزاك » ؛ وقد بقيت الصفحة تحتها بيضاء ، لكن رأس دويانه ، وسبخة كاروسل تصبح نقطة انطلاق لبعض رحلات ابنة العم بت ، ويحل بيكسيو ولورا محل « الأمير » لرئاسة رحلة الاستكشاف التي ينفذها غازونال ليس في شارع ريشليو فقط ، وانما في منطقة محددة حول الرأس الشمالي لفراسكاتي ، وهي منطقة معروفة لدى بلزاك ، ففي المبنى ذاته المشكل لذلك الرأس والمبني في العام ١٨٣٨ . في شارع ريشليو على زاوية شارع مونمارتر ، بحذاء حافة حديقة فراسكاتي الشهير ــ وقد أصبحت دوءارا بعد إزالة بيوت اللعب في نهاية العام ١٨٣٧ ــ استأجر بلزاك من كانون الثاني ١٨٤٠ حتى نيسان ١٨٤٢ استراحة سماها « المرصد الباريسي » إذ بامكانه ، وفقا لتعبير ج برتو ، « أن يرصد جميع نماذجه في الملهاة الانسانية يروحون ويجيئون تحت نوافذه » . فاختيار المكان الهندسي لرحلة **ريفي في باريس** في ١٨٤٦ يتضح إذا بسهولة إذ انه هو مكان مشروع شوارع **باريس** ، عدا عن ذلك فان رسالة من بلزاك تحدد الفترة بدقة ، ففي ٢٢ كانون ثاني ١٨٤٣ ، يكتب الى السيدة هانسكا : « أضحي من أجلك عن ألف فرنك تمنح لي لقاء ست عشرة صفحة بمقياس هذه الرسالة كتبت تحت عنوان : **رحلة اكتشاف نفذت في شارع ريشليو** ، من أجل أحد هذه المؤلفات الحمقاء مثل **الحياة الخاصة للحيوانات** الذي تباع منه ٢٥٠٠٠ نسخة بسبب القسائم » لكن هذا الاحتقار لايفسر ،بأفضل من تصريحه المزعوم للورين عن فشل المشروع ، ذلك أن **شوارع باريس** لم تكن أكثر أو أقل حمقا من **الشيطان في باريس**.

يفسر بلزاك نفسه فشل **رحلة** كانون الثاني ١٨٤٣ ، وقبول المشاركة في **الشيطان في باريس** في ١٨٤٤ ، والانتهاء من **ريفي في باريس** في ١٨٤٦ ، ففي مطلع ١٨٤٣ عندما أنهى أو كان يكتب أو بدأ : **المتصيدة** ، **وأونورين** ، **وربة وحي المقاطعة** وقسماً « عن كاترين دي مديسي » وبدء **فتنة وتعاسة**

المومسات ، ونهاية **اوهام ضائعة** ، فان حيويته كمبدع ورجل لا يمكن أن تقتصر على نزهة قصيرة في شارع ريشليو ، غير أن هذا المشروع على الاكثر قد جعله أكثر انتباها للاشياء وللناس من حول « مرصده » ، والى بعض التفاصيل أيضاً عن تاريخ هذا المرصد ذاته ، كما سيظهر في **البورجوازيين الصغار** ، ولكن بدءاً من كانون أول ١٨٤٣ ، وفي الفترة التي بدأ بها هتزل الاتصال به بشأن **الشيطان في باريس** ، وفي فترة ولادة البورجوازيين الصغار ، وبتزايد الصعوبات التي بدت له في تحقيق مؤلف بحجم هذه الرواية ، وبمرور أيام سنة ١٨٤٤ الصعبة ، حان الوقت المناسب **لممثلين غافلين** ، اذ أن الغموض المحيط بمصير علاقته مع السيدة هانسكا ، وانتظار لقاء جديد معها يؤجل باستمرار ، وخيبة الامل وظهور بعض أمراض تشغل البال لديه ـ التهاب النسيج العنكبوتي الدماغي ، والتهابات كبد ناكس ـ جعلته في قصور معنوي وجسمي ومادي يمنعه من تصور كتابة مؤلف ذي نفس طويل رغم حالته المالية الزرية ، وجاء عرض هتزل من اجل مقالات قصيرة في اللحظة المناسبة ، باعتبار أن موضوعها عن باريس ، مما يتلاءم مع « مشاهد من الحياة الباريسية » واستجاب بلزاك بطبعه وبدافع الحاجة اذ أن بيع المؤلف سيضاف الى ريع المقالات ، مما جعله يتصور المقالات عن مشاهد غير مستقلة ، بل وأفضل من قابلة للتجمع فهي متجمعة منذ اعدادها ، وهكذا فمنذ حزيران ١٨٤٤ كان بعث **الرحلة** التي كشفت عنها عدة وثائق ، وتعددت العناوين لها ، وفي هذا تعبير عن قلق بلزاك ، في الوقت الذي استمرت فيها ميزته في تعاظم التصور لديه باستمرار .

منذ انطلاقته ، لم يتقيد بشارع ريشليو وحده ، وانما في حزيران أصبحت الرحلة **رحلة في باريس** ، وأضيف اليها **العودة من باريس** التي يروي فيها غازونال « مغامرته الى من في بيئته » كرصيد لذلك . في تموز ، برز بطل جديد بدلا عن الامير في **رحلة ولد ضائع في باريس**، ثم يشطب بلزاك هذه **الرحلة** المهترئة ، ويستبدل بها مغامرات ، ويلصق عند ذلك بهذا المشروع الجديد ، باعتبار أن موضوعه ما يزال معلقاً ، **الفضوليات البشرية في باريس** .

رحلات ، **ومغامرات** ، **وفضوليات بشرية في باريس** تنتشر لتتجمع

من جديد ثم تلغى لتتكوكب بدءا من رأس فراسكاتي : حيث **يوجد ما يمكن أن نراه في عشر دقائق** أولا في **ممر الاوبرا** الواقع مقابل الرأس ثم في **شارع الايطاليين** المتفرع عنه ، أخيراً **غوديسار في شارع ڤيڤيين** وهو شارع مواز لشارع ريشليو ويمتد من الجهة الثانية من فراسكاتي ، وفي الوقت نفسه ، يقرر مبدع **الملهاة الانسانية** أن **الفضوليات البشرية :** مثل مصلح القبعات ، وبائع الشالات ، وجاسوس التجارة ، وبائعة أدوات الزينة ، والحلاق ، والمتنبئة بورق اللعب ، ومدير المجلات ، ومستشار الارجل والاظافر يشكلون قسما من الملهاة الكبرى ، ويؤلفون الملاهي **التي يمكن رؤيتها مجانا في باريس .**

في ١٧ آب ١٨٤٤ ، يتفاوض مع هتزل بشأن هذه **الملاهي** في « عدة مقالات » وبشأن المشاهد التي **يمكن رؤيتها في عشر دقائق** ، وماتزال متفرقة ، وفي نهاية الشهر انتهت اربع فضوليات : **جاسوس في باريس ، وسيدة الحيلة ، وغوديسار الشالات ، ولاوثر القبعات** ، وهم يشكلون ملاهي مترابطة جيدا وهذا ما ازعج هتزل ، **فالشيطان في باريس** قد نشرت في كراسات مواضيع ومؤلفين متميزين بعضهمعن بعض الآخر ،لكن موضوع « **المقالات** » بالنسبة لبلزاك يتعلق بفكرة كتاب حقيقي ، مؤلف واسع عن باريس ، يكبر باستمرار ، ويتسع . في ٣٠ آب ، يعلن للسيدة هانسكا : « **الحال** ، أن لدي فكرة وضع **لوحة عن باريس** ، ربما تمكنت لوحدها **أن** تنهي جميع مشاكلي ، **أي أنها** ستؤمن لي على الاقل وبسرعة ٣٠٠٠٠ الى ٤٠٠٠٠ فرنك»؛وفي **الحال** يضع مخططا **للوحة باريسالمصورة** في ١٥٠ كراسا كل منها ب ٣٠ سنتيماً . مظهرها العام : الحوانيت ، والضواحي ، وضفاف النهر، والشوارع، والاوبرا والكنائس ،والساحات، والمدينة ، والشرطة ، والقصور ، والاسواق ــ وسلطات الدولة والتويلري والوزارات ــ المحامون والاطباء ؛ الصحافة ، المسارح ، الفتيات ، اللصوص ، المطاعم ، مراسم الدفن ، ثم (كلمة غير مقروءة) الخاصة بالباريسيين ــ مسرات الفقير الصغيرة ، وتعاسات الغني الصغير في منتصف الطريق بين **الرحلة** الاولى **والريفي في باريس** فان هذاالمشروع يدل ، بعنوانه المختار ، على طموحه لمنافسة أشهر مؤلف في الموضوع ذاته **« لوحة باريس »** لسباستيان مرسيه الذي نشر بين ١٧٨٢ و ١٧٨٨ في

اثنى عشر مجلدا ، أما **لوحة باريس** المتصورة في نهاية شهر آب ١٨٤٤ فقد اقتصرت على **دليل باريس** بحكم الواقع .

من هذا الدليل المهجور ، بقي بحكم الواقع ايضا ، اكثر من أثر في المؤلف الذي كتبه بلزاك في عدة ايام فقط من « عمل خارج عن المألوف » في شهر كانون الثاني ١٨٤٦ ، بعد أن تمكن أخيرا من « أن يتغلب على كسل هذا المخ الذي جعله في منتهى التعاسة » ومنعه من ان يعمل منذ « رحلة درسدن » ، منعه جزئيا وتكفلت نزوات السيدة هانسكا بالباقي، إذ أن بلزاك قد قضى عمليا سنة ١٨٤٥ وهو يأمل أن تستدعيه ليتهيأ للسفر معها ، ثم ليسافر معها ، ومنذ ٢٨ نيسان ، وهو يوم سفره الى درسدن ، وحتى ١٧ تشرين ثاني ، لم يقض الا تسعة وثلاثين يوما في منزله ، وهي غير متواصلة ايضا ، وفي فترة رحلته الاولى ، كانت عبوات مسوداته تحوي « فضوليات » أخرى ، وخاصة **الحلاق ، ومتنبئة ورق اللعب ، وملاهي** جديدة انتهت في شباط ١٨٤٥ ، في الوقت ذاته الذي سترفع فيه الستارة عن **« ما يمكن رؤيته في عشر دقائق** ، وخلال توقف في باريس في شهر تشرين أول ١٨٤٥ أوقف بلزاك نهائيا الشكل المضاعف والعنوان المضاعف لمؤلفه : **الريفي في باريس** الذي ظهر أولا ، ثم بعد ثمانية أيام **ممثلين غافلين** .

عدا الدلالة على نوع أدبي ، فان عنوان **ريفي في باريس** ، يزود بلمحة عن آلية خلق طريفة ، اذ بالانطلاق من خط موجه لدليل قديم مشهور ، تلد لاول مرة شخصية من العنوان ستشكل بطل القصة : الريفي وجه دائم الحركة مضحك ينطلق من نهج الى شارع ، ومن ممر الى حانوت ؛ يجري عبر « هذه المدينة الكبيرة الهازئة » لا « يرتاب بشيء» وقد اضطر أن يترك بلدته في البيرينة الشرقية ، عقب خلاف مع المحافظ .

هذا الريفي ، غازونال لا يعرف شيئا عن باريس الا النزل الحقير في شارع « كروا دي بتي شامب » حيث أقام والمكاتب التي يقوم فيها بمراجعاته الفاشلة قبل أن يلتقي بقريبه الباريسي العتيق ليون دي لورا الذي يجعله ، مع بيكسيو ، يكتشف قلب العاصمة بالذات ، حول فراسكاتي .

إن رحلته ستكون اكثر اختصارا من رحلة بطل مونتينيي المزعوم . هذا الريفي الذي يأتي بالمقابل من منطقة غير مختلفة كثيرا ، من سان بورسين (مقاطعة آلية) عقب نزاعات سياسية ، كما انه ينزل في باريس في فندق متواضع حيث تشعُ من حوله ، على مسار فصول عديدة ، « حفلات رقص وأمسيات مسلية » ثم « شبه مسرح مصغر » وحتى « الحياة العائلية » لمستخدم مكتب .

يشير الاسم الذي أطلقه بلزاك على بطله الريفي ، الى جانب دلالته الادبية ، على أنه مستمد من الواقع ؛ وقد أشار پيير سيترون الى أن « هذه الشخصية ذات اسم قريب من صديق بلزاك غوزلان ، وهو كما تشير رسالة الى السيدة هانسكا اختصاصي بتقليد هزلي للهجة أهل الجنوب . وحضور ليون غوزلان في استكشاف لباريس ليس وليد صدفة، وكذلك أيضا اختيار الشخص الروائي الآخر المختص بالعاصمة : ليون دي لورا القريب أيضا ، ليس فقط باسمه ، من صديق آخر لبلزاك هو لوران جان .

في العام ١٨٤٤ ، كان غوزلان ولوران جان الصديقين الاكثر ملازمة لبلزاك ومن الرفقاء الذين استوحى منهم الى حد كبير المسحة الهزلية في **الملاهي المجانية** المتصورة عند ذاك ، وقد قدما تفصيلات عديدة عن ملامح أبطال هذه الملاهي ؛ فغوزلان يمتلك عدا اللهجة الاقليمية الجنوبية سجل القريحة الهزلية لبيكسيو المهذار المتلاعب ، ومزايا بيكسيو بالذات ، مخرج هذه الملاهي بهذه اللهجة . أليس على غوزلان عرض بلزاك ، في آذار ١٨٤٤ ، المشاركة لكتابة موضوع هزلي لفردريك لميتر : « أليس هو الذهن الوحيد القادر أن يبتكر روح هذه الهرجات ؟ » ألم يجعل بلزاك غوزلان أيضاً رفيقه المفضل في استكشافاته الخاصة لباريس ، كما يشهد على ذلك هذا الفصل من **بلزاك في خف** ، حيث وصف هذا الشخص **رحلة استكشافهما في شوارع باريس** بحثا عن ماركاس . . .

أما لوران جان فهو رسام كليون دي لورا ، وله شخصية وفعاليات تشرح بعض التفصيلات الخاصة أو الفريدة لمختلف النصوص المتعلقة

بالفنان البلزاكي ، فدي لورا ، الذي ظهر في **الملهاة البشرية** كمزحرف لقصر الكونت دي سريزي ،يبدو قريبا جدا من صديق بلزاك المعروف والذي يبحث عنه لهذا الاختصاص بحيث أن البارون جمس دي روتشيلد قد استدعى لوران جان لزخرفة قصره الباريسي . ولوران جان الرسام و « المشهور تقريبا » بهذه الصفة ، ليس أقل شهرة في التورية والامثال المحرّفة ، كما الشاب لورا في « **بداية في الحياة** » ، وكما لورا ، وهو في التاسعة والثلاثين ، في **ريفي في باريس** « حيث يظهر غالبا ميستيفري القديم لديه » ، يبدو لوران جان في ذات العمر ، وقد حكم عليه بلزاك بأنه مأخوذ كثيرا « بشيطنات المحترف » التي « لم تعد تتناسب مع العمر الذي وصل اليه مهما كانت درجة ظرفها » . أما في الادب فهي «متناسبة» وهي « ظريفة في الخيال البلزاكي ، وحتى في الحقيقة . ذلك أن لوران جان كاتب أيضا ، ينشىء المشاهد المسرحية القصيرة (سكتش) و « الفكاهات » كما يذكر موريس رغار . هذا التفصيل عن نشاطاته يوضح عرضا للسيدة نوريسون المرابية وبائعة الزينة التي كان لوران يسعى لاخفاء هويته عنها ، والتي تعرفت عليه مهتدية بإحدى التوريات : « آه ، ياسيدي العزيز ... انك فنان ، وتعد مسرحيات ... » تفصيل غريب لان لورا رسام ، اذا ليس ثمة خطأ : وبالتحديد فالمرابية بائعة ادوات الزينة تعرف كل شيء عن كل الناس وهي تمتلك عددا من الاسرار بقدر عدد الباريسيين ، اذا فالصحيح ، حتى لو لم يرد بلزاك ، أن تكون هي من يكشف لنا سر لورا وهويته الحقيقية ، خاصة وقد أضافت عبارة « إنك ماتزال مع السيدة انطونيا » وهي موحية ببوح أسرّة بلزاك للسيدة هانسكا عن علاقة قديمة بين لوران ــ جان ومالاغا الممثلة ، التي قدم اسمها بعد ذلك في رجل أعمال كروائية منافسة للسيدة انطونيا . عدا ما يتميز به من مزايا لورا ومواصفاته ، فان لورا جان ، وفقا لمكسيم دو كامب « باريسي قح » مجاله الجادة من فوبور ــ مونمارتر ــ الى رأس فراسكاتي ، وهو « مسل بشكل مذهل » بحيث ان كل ما فيه محدد للقيام بدور لورا ، كفوزلان ، قبل أن يسميا للعب دور بيكسيو ولورا في الخيال ، اذ بهذين الصديقين فكر بلزاك مباشرة ، عندما أراد في تشرين أول ١٨٤٢ العمل على اكتشاف باريس والباريسيين وأن يبين « كم نحن

وافرو الذكاء إن لم نكن وافري المال » لويلهم دي لنز . إن 'كتشافات هذا الريفي الروسي يجب أن تظهر في ولائم **صخرة كانكال** المماثلة في بذخها للوليمة التي اقيمت لفازونال في **مقهى باريس** عند رفع الستارة **خلال الملاهي المجانية** . ثم كأن الصدفة أرادت أن تساعد هذه الملاهي وتوزعها في اللحظة التي كان يسجل فيها المشروع الاول **لريفي في باريس** ، فقد بدا غوزلان ولوران جان « ظريفين » و « مسليين بشكل مذهل » خلال وليمة اخرى جرت في حزيران ١٨٤٤ . اهتم بلزاك بوصفها السيدة هانسكا : « إنه عشاء لا يمكن أن يتم الا في باريس » حيث « ملامح الطرافة لا تظهر بصورتين » ؛ ومن المؤكد ان ممثلي هذه الملامح قد بعثوا ثانية في المؤلف الذي كان يولد في ذات الوقت الذي خلقوا فيه حول بلزاك الجو المرح والهزلي **للملاهي المجانية** . ونشروا ظرف بيكسيو ولورا ، الظرف الباريسي الخاص ، وروح الملاحظة أيضا التي يتقاسمانها مع بلزاك ، كما يتقاسمها مع مبتكرهما لورا وبيكسيو المتحدرين ليس فقط من رفقاء ١٨٤٤ ، انما ايضا من بلزاك نفسه المزود بمواهب رسام كبير مثل لورا ، وفي آن واحد ، بعين كاريكاتوري مثل بيكسيو الذي يلتقط الامور الرئيسة ويكبرها . كما أن ليس وليد الصدفة ماكشفته السيدة نوريسون ، الواثقة من معلوماتها ، عن أن بيكسيو يسكن في ١١٢ شارع ريشليو : اذ أنه عنوان « مرصد بلزاك الباريسي » .

مرصد جيد لرصد صحيح على جادة الايطاليين أو ممر الاوبرا ،حيث يمكن خلال عشر دقائق رؤية راقص أوبرا ترافقه عمته المزيفة ، والممثلة البكماء كرابين (الغدارة) ؛ والراقص الاول « الذي يربح ٦٠٠٠٠ ف سنوياً » والمغني المتوسط الصوت «الذي ينال اجرا معادلا لاجر الراقصة» والراقص الثاني « بأجر ٣٠٠٠٠ ف سنويا » ، وراقصة الدرجة الثالثة التي لاتوجد الا بالقدرة الكلية لصحيفة » وأخيراً التينور « الذي تستحق حنجرته مئة ألف فرنك » مضافة الى مئة ألف أخرى لعقبي نجمة الرقصة ، وهما يشكلان كفتي الميزان الماليتين في الاوبرا » . معلومات دقيقة موثقة بشهادات عديدة ، حتى باسم الممثلة البكماء : « في باريس ثلاث فئات من الغيد الجميلات الماجنات : غير النخبة ، والغيد الفذات ، والغيد

النموذجيات وهنا غادات اشتهرن بألقاب « الغدارة القصيرة » « موسكيتون » ، والحربة « بايونيت » والغدارة « كارابين » وفق ماذكره موريس ألبوا في ١٨٤١ في مؤلفه **فيزيولوجية الغادة الماجنة** ، وقد أشار غوتيه في ١٨٣٨ في كتابه **تاريخ الفن الدرامي** الى ١٠٠٠٠٠ ف الاجرة السنوية لنجمة الاوبرا ، وحدد ڤيڤيان الاجرة السنوية للراقص الاول بما يتراوح بين ٥٠٠٠٠ و ٨٠٠٠٠ ف في مقال منشور في **مجلة العالمين** بتاريخ ١ أيار ١٨٤٤ .

كان الدليل دليلا جيدا منذ البدء ، بالرغم من أنه لم يكن يعرض الا الممثلين المحترفين ، على نحو ما ، في الملهاة الباريسية ، وكلهم غفل من الاسماء ، باستثناء كارابين : فهذه مثل مالاغا الحقيقية في موضوع آخر ، حيث تصبح ممثلة غافلة ، في دور ثانوي في نهاية **الملاهي المجانية** الى جانب جيني كادين التي لها في دورها « كمنافسة لدجازي الشهيرة » اكثر من اسم مشترك مع جيني قربره الحقيقية وخلال ذلك يحل الممثلون الحقيقيون محل المتصورين ، وتظهر بدلا من اشباح البدء رسوم معروفة ووجوه حقيقية ؛ انهم رواق بعدد من الوجوه الجديدةلدى بلزاك ، لا يدخل أي منها بعد ذلك في عالمه الروائي ، وذلك لانها تعود ، دون شك ، الى عالم الدليل حصرا : والشخصيات حقيقية حتى في تقارب الاسماء ؛ وقد أمكن الكشف عن كثير من التشابهات من قبل المعاصرين مما سبب نجاحا للمؤلف وتسلية كبرى للقراء ، بينما لم يكشف عن أي منها بعد ذلك من قبل النقد البلزاكي ، مع أن قسمات عديدة ، وتاريخ وصف هذه الصورة أو تلك ، تتيح الاهتداء أحيانا الى هوية عدة شخصيات شاع اسمهم تقريبا بحيث عرفوا أو ظهروا في بعض الوثائق ، وأحيانا أخرى يشعر فقط بنشأتهم الاكثر غموضا .

وهكذا من بين الغامضين ، غامضان من شخصيات أربع : **المرابية بائعة أدوات الزينة** ، **وجاسوس في باريس** ؛ فأصل لانوريسون يظهر حقيقيا بداهة بينما يستحيل تحديده ، فهو يعود الى **فتنة وتعاسة المومسات** حيث ظهرت في العام ١٨٤٣ ، كشريكة في **الملهاة الانسانية** وخصص لها أن تتم سيرتها في العام ١٨٤٦ عند فك حبكة المأساة التي

بدأت منها ، وعندما أصبحت في ١٨٤٤ موضوعاً في وصف الهيئة ،بشكل عارض،لم تكن تنتمي تماما الى **عا لم ريفي في باريس** ، نما الى هذا العالم الحقيقي الذي كان ، بالمقابل ، ينتمي اليه حصرا **جاسوس في باريس** .

كان « الاب الطيب فرومنتو » يشكل الذراع اليمين لحراس التجارة، عاملا في الخفية لجمع « المعلومات » عن الدافعين ، والمتمردين ، وباعة المفرق المهرة ، والمتفاخرين من كل صنف ونوع ، ممن يسعون الى تجنب أن « يميلوا » فيضيق عليهم ، وهو يمثل « شخصية تثير الفضول » باريسية على التخصيص اذ أنه أداة لهؤلاء الحراس العشرة في التجارة الذين ترتبط فرقتهم بمحكمة التجارة **وقد « انشئت لمدينة باريس فقط»** « لتنفيذ الاحكام القاضية بحبس المدين »(١) . إذا كانت الهوية الحقيقية « لجاسوس » مخصصة ، بالتحديد ، لتبقى مجهولة ، ففرومنتو وحقيقته هما من أصل قابل للحدس . من أين لبلزاك أن يستمد هذه الفكرة النيرة عن اختصاصية الغامض ، ان لم يكن من ڤيدوك ، حيث أن هيئة الشرطة الخصوصية مختصة بتحري المعلومات لمصلحة التجارة ؟ فڤيدوك المستعمل الاكبر لمهارات اقتفاء أثر الخاضعين للمقاضاة في محكمة التجارة ، ولزمرة مخبريها ، هو الخبير بفرومنتو فعلا . وتذكر غالبا ملاحظته : « انك تجهد نفسك ، يا سيد بلزاك ، لتبتكر قصصا من العالم الآخر ، بينما الحقيقة هنا ، أمام عينيك ، وقريبة من مسمعك ، وفي متناول يدك » والحال أن هذه العبارة قد قالها ڤيدوك خلال عشاء يمكن تذكره بحيث أن غوزلان قد سجل تاريخها في مؤلفه **«بلزاك في بيته»** « نعم كان ذلك في العام ١٨٤٤ » وبشكل أدق أيضا « في صميم فصل الصيف » أهو بينة على التفوق في الامر الخارج عن المألوف ، أو على الحقيقة في الابتكار ، أم أن وجود فرومنتو قد وضع ذلك المساء قريبا من مسمعك ، يا سيد دي بلزاك ، في اللحظة ذاتها التي كنت تفتش فيها عن « فضوليات بشرية » ؟

لكن الجاسوس الغامض المعروض من ڤيدوك بانتقاله بين السمع

---

(١) المادة ٦٢٥ من قانون التجارة الصادر في ٢٤ آذار ١٨٠٨ .

(٢) ل. غوزلان : بلزاك في بيته (طبعة ١٨٦٢) .

واللمس ، ربما أثار تطبيقا مسلياً لظاهرة الراش المرشوش ، ألم يستعر بلزاك من العارض بالذات بعض سمات طبع الجاسوس : هوس تعلم اللهجة العامية ، التلطف المعجب في شرح تصرف فريقه ؛ الطموح الى منافسة هزلية ؟ « اذا عددت لكم المزايا التي تجعل الرجلَ متميزاً في فريقنا لخلتم أنني أتحدث عن رجل عبقري » يقول فرومنتو . برهان ساخر عن أن بلزاك يعرف ، دون أن يجهد نفسه ، استخدام الحقيقة ، فالجاسوس قد استغل جيدا بحيث شغل لوحده فصلا من **الممثلين الغافلين** ، « كأنه وكيل صحيفة » . فجأة ، تيودور غايار ، وهو « فضولية » أخرى ، متوقعة في مطلع آب ، يختزل الى دور الترويج ويبدو متجنبا ، بينما كان تعريفه الموقت « مدير مجلات » وهو يشير الى النية في تنفيذ وصف مفصل لصورة « المدير ـ رئيس التحرير ـ المالك ـ الوكيل » التي سبق أن أجملت في **« دراسة وافية عن الصحافة الباريسية »** التي نشرت في **« المدينة الكبرى »** أهي فرصة الا يجهد نفسه قدمها ڤيدوك في أوانها ؟ أم شعور مفاجىء بعدم الاهمية ؟ أم نقص في العزيمة أخذ يتأصل لدى بلزاك ؟ ان أسباب التعتيم شبه الكلي تقريبا على نجم الصحافة تبدو محيرة . أما ما يتعلق بنموذجه الحقيقي : ما تبقى من الشخصية التي « لورقتها ٢٢٠٠ مشترك » والتي « تسكن في شارع منار » . يبدو أن في غايار ، على الاقل ، احدى سمات لويس ماري پيريه « المدير الوكيل » « للقرن (سيِكل) » (وهي الصحيفة الوحيدة التي كان لها « عندئذ » ، وليس لغيرها ٢٢٠٠ مشترك) ، وسمة أيضا على الاقل ، مشتركة مع هتزل « الساكن عند ذاك في ١٠ شارع منار » قرب المتجر الذي يجري فيه **غوديسار شارع ريشليو** بيعاً مخفضا غير متوقع في مقطع مدرج خاصة في نص **الشيطان في باريس** هذا الاعلان عن المتجر الذي باع نفسه فيه **الشيطان في باريس** ، سواء عاد الى هتزل أو الى بلزاك ، يشير على كل حال الى حقيقة ، والدليل يتيح ، كما في أمثاله ، لريفي أن يكتشف « الفضوليات » المعروفة وغير المعروفة في باريس ، وأجهزتها المنظورة وغير المنظورة ، فرومنتو المختبىء في العتمة التي تتطلبها مهنته كجاسوس ، وغوديسار الشالات مسلط عليه النور بفضل الدعاية المطلوبة لمهنته كتاجر ، ونوريسون متربصة في غياهب تجارتها المغلقة بالاسرار ، ومتفجرة كأحرف من ذهب في لافتتها ،

ولوثر تصليح قبعات . أما صانع القبعات ڤيتال ، فهو فضولية « من المقام الاول » وفق تورية بيكسيو ، الموجهة خاصة الى التفاخر العائد الى طبعه على الاقل مثلما هو عائد الى متطلبات النجاح التجاري ، وله في الحقيقة اسم قد يتيح للقارىء لقاء « مسليا » مثل ذلك الذي وعد به بيكسيو غازونال ، اذ أن المبتكر ، المصلح ، « لوثر القبعات » هو وفق كل احتمال السيد جيبوس ؛ فلئن استحق صانع قبعات هذا الاسم الذي وضعه بلزاك ، فهو بحق جان باتيست جيبوس ، الآتي من ليموج لينشر في باريس هذا « الاصلاح » الاصيل لغطاء الراس ، الخارج من مخه « الفخور بطبعه » ، والذي سيحمل يوما اسمه « الجيبوس » ؛ وباستثناء تدقيق زائد عن القبعة النابضة فان بلزاك ، في وضعه ، لا ينسى أياً من السمات المميزة لجيبوس ، تلك التي يسمح بالعثور عليها عدد من الوثائق : « يمكن أن ينتخب ، وذو دخل جيد ، صاحب ملك في شارع ڤيڤيان ــ قرب غوديسار شارع ڤيڤيان المتوقع في البدء ــ « لمخازن » مدهشة بين مدهشات مركز باريس الاكثر ازدحاما تجاريا ؛ « معلن » كبير عن نفسه ، كما يظهر في الصحف أو على سبيل المثال ، في هذا المنشور ضمن الدليل التجاري لعام ١٨٤١ الذي يشير الى مداليته الذهبية خلال معرض ١٨٣٩ ، ويذكر « أن هذا المصنع قد عرض منذ ١٨٣٤ نموذجا لآلية تطبق على القبعات لتصغير حجمها ، ومنذ ذلك الحين حسن ابتكاره الاول بطريقة متميزة . والواقع أن هذه الآلية الخفيفة والصلبة » كما تنفذ في الوقت الحاضر ، يمكن أن تتنوع في أشكالها بحيث تطبق على جميع تسريحات الشعر .... ان السعر المرتفع قليلا لهذه القبعات هو وحده الذي حال حتى الوقت الحاضر ، في الانتشار الواسع لها ، لكن المبتكر قد اتخذ الاحتياطات الضرورية لإمكان تصنيعها بسعر رخيص ... فقد ساهم في اصلاح نسيج من أوبار الارنب المخلوطة بمشاقة الحرير ، مما يسر توفيرا كبيرا في صناعة القبعات المبدة » . في هذا المقطع نجد كل شطحة ، وحتى « أسلوب » من يحب أن يعلم ، لدى بلزاك ، بأنه يصحح المسودات في مكتبه ويحكم بأنه « سما بالقبعة حتى مرتبة العلم » ، من يمكن أن يدعي : « أنا اكتشفت ذلك بمفردي » بمناسبة القبعة المشابهة لقسطل المدفأة ، والذي يهتم بتنويع الاشكال ، ويعرف أن ما نسميه **فرو قندس** ليس الا

وبر ارنب ، ويكشف عن سر هذا التوفير الكبير ، ثم يوجه ناصحاً : « السعر الرخيص ، يا سيدي ! ، يقتل تجارتنا » ويتفاخر بعدد محدود من الزبائن « يقتصر على الاشخاص الذين يقدرون ثمن اتقان صنعته » . سعر « مرتفع قليلا » .. بشكل يرضي طموحه بحيث يجدد هذا الامر ويختفي » ، لقد حقق جيبوس ذلك جيدا حتى يكاد لا يعرف في صورة المصلح الصاخب ، « السعيد على طريقة لوثر » لأنه نجح في أن « يغير القبعة » .

لئن كان التشابه في الصور الأربع الأولى ملفتاً النظر ، نجد إلى جانب مراعاة الحقيقة ، أن بلزاك يسعى الى إظهار تأثيرات التباين ، فالاهتمام بتناوب المواضيع ، يستدعي أحيانا ، الظل ، وأحيانا النور ، وهذا ما نجده في الصورتين المنفذتين بعد ذلك في مطلع العام ١٨٤٥ : **احد كبار الحلاقين الثلاثة في باريس ، وبصارة ورق اللعب .**

إن بصارة ورق اللعب ، المخلوقة للسحر والتنجيم كالسيدة فونتين يجب أن تبقى في عالم الغموض الذي يشكل مكونات وجودها ذاته . لذلك لا تذكر عنها اية ملامح ، انما بعض أسطر عن استشارة غازونال ،وفصل بعنوان **« معمل لتكوين الامل** ، وكذلك بعض ملاحظات متولدة عنه ، وفصل عن **سر علوم التنجيم** لا يعكس حقيقة .

سبقت الاشارة الى **معمل لتكوين الامل** ، في الرسائل الموجهة من بلزاك الى السيدة هانسكا حيث تحتوي عدة مقاطع على مجموعة المكونات لبناء أدبي وتشكل ، بهذا الخصوص ، وثيقة قلّ وجودها . ففي ١٥ تموز ١٨٤١ يكتب : « ذهبت منذ عدة أيام أبصر بورق اللعب لدى عراف شهير جدا ، لم أشاهد قبلا هذه الظواهر الفريدة ، التي إجدها غريبة الى حد بعيد . لقد قال لي هذا العراف ، وفقا لتركيبات أوراقه ، أشياء تكاد تدهش بصحتها ، وخصوصيات عن ماضي وهو يشرح لي تكهنات المستقبل . ان هذا الرجل بدون ثقافة وبسوقية لا متناهية ، ما ان يفتح اوراق لعبه حتى يستخدم تعابير مختارة ... لقد قال لي ، وهو الذي لا يعرف أيا من أصولي سواء من ناحية حواء أو ناحية آدم ، وانا الذي لم اكن اعرف في

الســاعة الثانية ، انني سأستشيره في الســاعة الثالثة ، قال ان حياتي استمرار لصراع كنت فيه دائما المنتصر ! اخيرا لم يقل لي عما اذا كنت سأتزوج قريبا ، وهذا هو **موضوع فضولي الكبير** » . وفي اليوم التالي : « ألم يقل لي العراف انني سأتلقى خلال ستة أسابيع رسالة ستغير كل حياتي » .

في ٥ كانون الثاني ١٨٤٢ تلقى بلزاك ورقة نعي الكونت هانسكي .

ما أن زال هيجان اليقين بأن حياته ستتغير حتى بدأ في « فبركة » الاوهام ففي ٦ نيسان ١٨٤٣ يكتب : « لقد قال بلتزار ، كارا ، ستة أيام ، أو ستة أسابيع ، أو ستة أشهر ، لكن ليس أكثر من ذلك . هــذه هي كلمته ! انهذا الرجل يمتلك موهبة النظرة الاخرى ، لأنه قد وصفك لي وكأنه يراك : « لها شعر أسود ، وهي بيضاء ، وهي ممتلئة حيوية ، بين الثلاثين والاربعين من العمر ، ممتلئة الجسم ، وانتما متحابان منذ مدة طويلة . (ان كل كلمة جعلتني في ذهول داخلي) . فالمسافة بينك وبينــه لا تقل عن خمسمئة فرسخ » للأسف فان بلتزار يهوى النســاء وقــد ارتكب أفعالا قادته الى العدالة ، وهذا العراف الكبير انتهى الى الحكم عليه أحكاما لا أعرف مدتها . . . انني أفتش عن بلتزار آخر ، فأنا بحاجة ما سة لأعيش في المستقبل كي اتمكن من تحمل الحاضر . وفي ٢٤ نيسان ١٨٤٣ يكتب ، « لقد أطلعت على جرائم بلتزار . . . إنــه في آن معــا مجرم كبير وعراف كبير ، لن أنسى أبدا ما قاله لي **وهو يجهل تمــاما من انا** ما أعجب ورق اللعب ! لقد وصف لي شخصك وطبعك ، وذكر لي منذ كم من الزمن تعارفنا ! اخيرا منالناحية العكسية ، لقد جاءت الرســالة خــلال ستة أسابيع ! تنبأ لي عن متاعبك الحالية ، وعن الدعوى القضية (وهذا ما لم أذكره لك) لكنه قال لي أيضا إن الحق العادل سينتصر ، واننــا سنكون سعداء ، ولسنين عديدة ، واننا **بالرغم من حدة طباعنا** لن تتعكر حياتنا . إن لدى الاثنين العناد ذاته ، وبالرغم من العقبات سيتأمن لي النجاح . . . فان أذني تطن .

لقد صعق جينيول وهو يصف له امرأته ويذكر له تلك التي يسعى

الى مغازلتها . اخيرا لقد قال لي أشياء عن عائلتي ، وعن حالة أخي ، ووضع اختي .. الخ .. الخ .. بحيث خرجت مذعورا من هذه النظرة الثانية على الورق . في المرة الثانية كان يعرفني ، لقد رآني في الشارع ، حيث سير من يتعقبنا ، بعد ذلك أخذ يتخبط ، غير أنه حدثني عن صعوبات قضائية حدثت ؛ إن هؤلاء الاشخاص يبيعونك الشجاعة ، كما يبيعك اليانصيب الأوهام . إنني حاليا أسعى الى بصارة ورق لعب اخرى يقال إنها تتفوق على بلتزار ، أريد أن أعرف **متى** ؟ بواسطة ورق اللعب .

معمل لتكوين الأمل... اليس لأن الامل كان يعوزبلزاك بصورةخاصة في مطلع ١٨٤٥ ، اقيم هذا المعمل ؟! إن المقارنة بين رسائله والنص الروائي تكشف عن الحالة الذهنية الفريدة للمبدع الذي اختار بسخرية مرة أن يعيش تجربته في شخص غازونال ، وهي تبين أيضا أن المشهد يعود الى إحدى هذه المراحل الاقل تهيوءا للإبداع . ففي هذا المشهد استخدمت الحقيقة دون تعديل تقريباً ، بدءا من التفصيلات التافهة عن شخصية المرافق (كان جينيول رساماًكبيكسيو) حتى مفاجات استشارة نجدفيها وصف المراة المحبوبة ، والرؤى المتعلقة بالماضي وتغير كائنات مبتذلة بموهبة العرافة التي تنتهي الى « سر علوم التنجيم » إذ كما أن بلتزار كان عاجزا عن أن يرى « توقيفه ومحاكمته والحكم عليه » كذلك السيدة فونتين تدمرت باليانصيب لأنها لم تكن « تعرف أنها تخسر الرهان » .

وقد استنتج بيكسيو « أن الامر كذلك في التنويم المغناطيسي،«حيث لا يمكن للمنوم أن ينوم ذاته » وهذه ظاهرة أعطى بلزاك عليها البرهان مرتين ، لأنه هو الذي يكون الامل ، وهو الذي يدفع السيدة فونتين لتكوينه ؛ والسيدة فونتين « منافسة » بلتزار المشهورة « أكثر تنبوءا عن الغيب من المرحومة الآنسة لنورمان » وهذه عودة ثانية الى المرجع الدال على أساس نص « سر علوم التنجيم » .

إن الآثار الأولى لهذا السر المستقبلي تظهر في الواقع في الوقت نفسه الذي ظهرت فيه تلك العائدة الى **بصارة ورق اللعب** ، في مطلع آب ١٨٤٤ ، وقد أعاد بلزاك تسجيل عنوان **البصارة** كمشروع على صفحة حيث سجل

فضلا عن ذلك أسم « ف. جيرو » والحال أن البصارة كانت متوقعةفي شهر تموز اذا بعد زمن قصير جدا من ٣ تموز الذي ارسل فيه فرانسيس جيرو كراسا نشره حول: « الآنسة لنورمان ، سيرتها الذاتية كاملة وهي الوحيدة التي سمحت بها العائلة . تنبوءاتها ... وقراءة الكف والتبصير بالورق مشروحة من قبل عرافة القرن التاسع عشر ، مع مقدمة فلسفية عن علوم التنجيم مقارنة مع العلوم الطبيعية ، لكن في « بحث علوم التنجيم » وهو فصل من **ابن العم بونس** سيستعرض سر علوم التنجيم،وستشرح قراءة الكف والتنبوءات بالورق بطريقة تنافس ، لحسن الحظ ما ورد في المؤلف المخصص للبصارة الشهيرة . إن فحص هذا الفصل من ابن العم بونس يبين أن بلزاك قد أدرج فيه صفحتين تشكلان على مايظهر الصفحتين الأوليين من المخطط الأولي **لبصارة ورق اللعب** ؛ وهذا القسم المهجور والموضوع جانباً سيذهب الى جزء آخر من « فضولية » كانت مهجورةأيضا وموضوعة جانبا هي العجوز آمبير الذي سيصبح ابن العم بونس .

أيكون نقصا في الطاقة تَخلّي بلزاك عن هذه « المقدمة » بحجة انها مفرطة « في الفلسفة حول علوم التنجيم » لكن ما السبب في التخلي عن المتنبئة بالورق ؟ الاصح على الأرجح أن انوار الفلسفة لا تتلاءم لا مع نوعية الدليل ولا مع الشك الذي تتطلبه صورة السيدة فونتين .

نقيض ماريوس الخامس أشير إليه في الدليل **كواحد من ثلاثة اشهر حلاقين في باريس** ، في الأدلة السنوية أو الكتب المرشدة عن ذلك الزمن يمكن أن نجد سلسلة من الحلاقين ليست أقل شهرة من آل ماريوس ويستحق اسمهم هذا القدر من الاعجاب وهي سلسلة پليزير ؛ في زمن **ريفي في باريس** كان حامل اللقب بليزير الخامس ، وإذا كان بلزاك قد جعل من حرف بدئي رقما سلاليا على سبيل الفكاهة فالواقع أن هذا الرقم،عدا الفكاهة ، يعود الىالواقع ، فبليزير V أي بليزير فيكتور كان فعلا المستثمر الخامس لاسم شهير منذ جان ــ ماتيو ــ نويل ــ پليزير حلاق ومعد شعر مستعار جاء من مو إن لم يكن من تولوز ليفتح محلا في باريس حيث أمكنه أن يبدي مهارته في الفن لدى السيد دي پارني . ما من شك أن بلزاك قد اختار پليزير ، ويسهل تفسير ذلك بأصالة شهرة پليزير

التي استخدمها سابقاً ، **في عائلة مضاعفة** ، فهذا الاسم الحقيقي الذي أطلق على الحلاق الذي « يتنقل في المدينة » من أجل الآنسة دي بلفوي ، يقدم دليلا على نجاح « اللعوب المحدثة النعمة » كما أن تفصيلات أخرى تشير الى وجود آل پليزير ، فمحل ماريوس يقع في ساحة البورصة ، ومحل پليزير الآنسة دي بلفوي في رقم ٨ ساحة البورصة ، ثم انتقل المحل الشهير الى شارع ريشليو في البناء الذي استأجر فيه بلزاك « مرصده الباريسي » وكان من جيرانه « ورثة پليزير » غير أن أعمال راس فراسكاتي أوجبت على پليزير أن يعود لفترة من الزمن الى ساحة البورصة حيث استقر حتى ١٨٤٠ في محل يحمل رقم ١١ شارع البورصة ، وقد ضم جاره **الفارسي** الذي ورد ذكره في غوديسار الثاني هذا المحل عندما تركه پليزير الخامس ليشغل صالون « المدهشات » الذي أعده في ٨ شارع لبلتيه ، أي في أحد مخارج ممر الأوبرا بالضبط ، في المكان الذي انتهت اليه جولة **ريفي في باريس** ، لكن الأدلة تشير الى ان ضمن محيط اكتشافات غازونال يمكن للريفي أن يعنى بتسريح شعره في شارع شوازل لدى منافس لبليزير تشارك حديثا مع شخص باسم فرانكور وهو يحمل فعلا اسم ماريوس .

إن تاريخ تنفيذ الصور الأخيرة تبقى غير مؤكدة ، وقد اراد بلزاك ، بداهة أن يخلق تأثير تناوب النور والظل بالتباين الذي يشكله الخطباء ، رسام عبقري ، وأحد « كبار » المعنيين بالأدب مع بوّاب وحاسم سندات ومطبب ارجل وأظافر ، يبقى التفتيش عن هوية النماذج الحقيقية لهؤلاء الأشخاص أو إن صعب الأمر معرفة أصلهم .

كلمة **معني بالأدب** جاءت منطقيا من الآداب : وفي نص من **النعاسات الصغيرة في الحياة الزوجية** نشر في ١٨٣٩ ـ ١٨٤٠ يمثل شودوري الزوج الشاب ـ الأومنيبوس المتهيىء على الأرجح بابتذاله ليغدو رجل الأدب ـ الأومنيبوس لكن شودوري « الشهير » في **الريفي في باريس** بقدر ما يصعب تحديده ، بقدر ما يبدو هذا « المعني بالأدب الكبير » شخصا قليل الذكاء ، ذا مجدمزيف وغرور أعمى ؛ والحال أن هذه السمات ، بالأمس كما اليوم ، لا تشكل ميزة فريدة تسمح بالعثور على نموذج مميز لها من مرتبة جندلتر ، إلا اسم شودوري ؟! فبين حملة الأقلام في تلك الفترة ممن يعتبرون أنفسهم

من كبار المعنيين بالأدب واحد تميز بعناد الهجمات التي كان يوجهها من صميم حماقته المتحاملة على أعمال بلزاك واسمه سودسيغ .

الواقع أن الحاسم فوڤينه والبواب راڤنويه من « الفضوليات » المبهمة ، ويشكلان صورتين طريفتين يستحيل تحديدهما لكن يمكن ايجاد شبه محتمل والتكهن بأصل معقول ؛ فحياة بلزاك المتميزة بكثرة الديون يكثر فيها حسم السندات وبالتالي يكثر الحاسمون .

اما بوّاب ريفي في باريس ، فهو بوّاب بيكسيو في ١١٢ شارع ريشليو ، إذا بوّاب « مرصد » بلزاك،حيث يوجد في المبنى واحدوسبعون مستأجرا (رقم أكدته سجلات المساحة) وهذا المبني هو احد « أكبر مجمعاتنا » القديمة الأولى المتميزة ، ويحتمل أن يكون البواب الحقيقي لهذا المجمع يتصف ببعض ملامح راڤنويه .

لكن مطبب الأرجل ، كيف يعثر عليه وهل هو « فضولية » غريبة ، بحيث يضعه بلزاك بين مشاريعه الأولى : آراء مطبب أرجل؟وآراء پوبليكولا ماسون هي بالطبع من الآراء المثيرة وبشكل كبير لانه يذكر ان روبسبيير وسان جوست « كانا خجولين » ، « نحن مضطرون ان نقوّض بعض رجالنا الكبار لنعلم الآخرين كيف يكونون مواطنين بسطاء » : « من أجل سعادة فرنسة » .

إن هذه الشخصية التي اعتبرت دون شك إحدى هذه المبلغات المحاطة بفرط الفكاهات التي أفرزتها مخيلة الروائي الكبيرة احياناً ، لم تثر أي تعليق منذ أكثر من قرن مضى على تمثيل بلزاك لمطبب الارجل هذا ، وهو يقرض الأظافر ، بانتظار أن يقطع الرؤوس ، اذ انه في الوقت ذاته رئيس زمرة صغيرة ثورية ، فمنذ اكبر من قرن والابادات باسم السعادة المستقبلية لبلاد وتجدد مواطنيها تتكشف دون ان تشتمل الا على القليل جدا من التخيل ، بل إن بلزاك ، بالنسبة ليوبليكولا ماسون لم يظهر أي تخيل ،فالواقعية جلية حتى لو اقتصرنا فيها على اسم ماسون فقط الذي يشير على الارجح الى عدو لفوزلان ، فعامل صقل الجواهر السابق ميشيل ماسون قد اصبح روائيا يراهن على استغلال شعبية

متصيدة ، او على اسم بوبليكولا المشتق من الأحرف الرئيسة لاغريكولا (المتعلقة بالعمل) الذي خطط بلزاك لكتابته بعد ان نشر بمدة قصيرة ، في العام ١٨٤٣ ماشتهر بقصة انشقاق اغريكولا وهو ، وفقا لراي بوبليكولا ، أحد هؤلاء الأشخاص الذين « يزعقون على قضية البروليتاريين والاجور » « هؤلاء الأشخاص الذين يجدلون الفتيل بينما نجمع نحن البارود » لكن عدا هذه المتممات ، فان سمات مطبب الأرجل قد رسمت بالاعتماد على حقيقتها الاصلية ، ففي ٣ آذار ١٨٣٣ ، دون الكونت رودولف آپويني الملحق في السفارة النمسوية في باريس في مذكراته : « إن رئيس دير رهبان المعبد ، من ديره جان دي سان جرمن في العاصمة، قد ارسل الى احد معارفي بطاقتي دخول لي باسم مستعار ، ورئيس الدير الكبير هذا مطبب أرجل ، ومنذ أشهر قليلة خطرت له فكرة ، لا ادري سببها في أن يحيي فرسان المعبد ، وقد انضم اليه بعض المستخفين الآخرين ، وبما أن في الامر وسيلة للتهديم ، فقد وجدوا على مايبدو دعماً من اللجنة الثورية التي قدمت لهم الاعتمادات اللازمة لدعم مهزلتهم السيئة .

مهزلة سيئة ، لكنها حقيقية ، حقيقي هذا المطبب رئيس زمرة سرية ، وحقيقة هذه الزمرة المثيرة للسخرية للأسف المؤلفة من حمقى مساكين يجتمعون في مكان غير بعيد عن ساحة « دى فيكتوار » اذا قرب المكان الذي التقى فيه غاز ونال مع پوبليكولا ـ ليستمعوا الى مطبب الأرجل يتنبأ في خطب مملة مشابهة بشكل غريب الى مذمات پوبليكولا . هكذا يسجل آبونيي : « إن عبارة قد أثارت انتباهي خاصة ، هي عبارة رئيس الدير مطالبا التساهل مع جميع الطوائف ، مما لايتلاءم كثيرا مع روح النظام الأساسي لفرسان المعبد، ولومه للسلطة التي لم تعرف كيف تحافظ على أقدم كنيسة في باريس [تلميح واضح جدا لموضوع سان جرمن لوكسروا[1]] » . بالمقابل فعند سؤال غاز ونال : «هكذا لا لزوم للدين ؟ » يجيب بوبليكولا : « لا لزوم لدين الدولة ، وسيكون لكل دينه ، انه لمن حسن الحظ ان تحمي اديرتنا في هذه الفترة ، فهذا يهيء الأموال اللازمة لحكومتنا » ، « في هذه الفترة » جملة قيلت في العام ١٨٤٦ ، تعني أيضا احتمال الوجود ، اذ بعد ثلاثين سنة من ذلك كتب

بيير لاروس : « إن بعض العقول الروائية تتخيل أن رهبانية فرسان المعبد ماتزال موجودة في الاقبية تحت الارض ، وان سرية تأثيرها لا تقلل من رهبتها » ، ولقد اشتهرت بأنها تلقت « دعم اللجنة الثورية » فأرعبتذلك الجبل الذي كانت تاتي منه الريح التي تثير جنون پوبليكولا وذلك بنقله من العتمة التي اختبأ بها القادة « الثوريون » لمدة طويلة ، وعندما نشر بلزاك « دليله » ، ظهر القادة للعيان وتمكن لورا أن يقول لغازونال :اذاتوفر لنا الوقت ، فسنريك جميع شخصيات العام ١٧٩٣ ... لقد رأيت مارا، حسن ! اننا نعرف فوكيه تنفيل ، وكولو ـ دربوا ، وروبسبير ، وشابو، وفوشيه ، وباربس ، وراسباي ، والفاتنة لور غروفل ، المشيرة الشهيرة المسموعة الكلمة لدى زمرة من الطامحين لقتل الملوك ، والتي أحبت سابقا وارادت أن تتزوج اتيين آراغو ، هذا الصديق القديم الذي امكن لبلزاك ان يصوره أيضا في العام ١٨٤٦ ، بين النسخ الثانية للعام ١٧٨٩ : ومنذ ١٨٣٨ في باريس الثورية ، جهر آراغو وجميع هؤلاء « الكتاب الملتهبين »، الذين سيجدد بلزاك ذكراهم في ابنة العم بت ، صراحة بنواياهم ، ومن بينهم ظهر غودفروا كافينياك ، وهو رفيق قديم آخر لبلزاك ، امكن للورا أن يذكره أيضا في مجموعة بوبليكولا ، اذ بعد ان حرر اثبات حالة فشل أمثال روبسبير وسان جوست فان كافنياك أخذ يصرخ مبدياً عزمه وعزم رفاقه على ان ينهوا على اكمل وجه وفي المستقبلالقريب واجبهم الشخصي في الهدم والتجديد .

ماذا يصبح رافاييل لو كان على مذهب فوريه ؟ هذا العنوان الذي اعطاه الرّسام دوبرديو لاحدى لوحاته يبين اوحده الاهمية ، ودوبرديو هو برهان اخير لباديهية أساسية في دراسات فلسفية « الفكرة القاتلة للمفكر » ، مع فرنهوفر جديد ، انما غير خيالي ، بل حقيقي ، وحتى معاصر ، يجب الاشارة الى نوعية الصورة ، والى نوعية النموذج المعتبر مجنونا بأرجله المسطحة ، والذي اوحى اعجابا وافكارا الى بودلير ، ودلاكروا ونرفال وغوتية . ما من مكان على الارجح ، الا في هذا التأليف المركز على موجز مفروض بنوعية ريفي في باريس اظهر فيه بلزاك ، بمثل هذا الاعتدال ، الميزة الرئيسةوالفوارق في شخصية ، وتنوع ردود الفعل التي توحي بها سواء لامثال غازونال أو امثال بيكسيو ولورا في زمنه ، انها « فضولية بشرية » على نطاق وسعة لوحة ناقصة لرفاييل .

هل يمكن أن يكون بلزاك قد التقى به في الجادة خلال جولة استكشاف مع غوزلان ؟ أو في صالون الاميرة بلجيو جوزو المشايع لفوريه؟ ان هذا الذي كان يسمى « الرسّام الفيلسوف » كان قد أصبح ، على كل حال دوبرديو ، عندي الانتهاء من ريفي في باريس في كانون ثاني ١٨٤٦ ، وعندما دخل رسميا في الرسائل الى السيدة هانسكا في ١٠ شباط التالي: « رجوت غوتيه أن يأخذني الى رسّام اسمه شنفار ، صديق لتيير ولبلجيوجوزو ، وقد كنت أعرفه . لكنني لا اعرف عنوانه ». وفي ١٣ « تعشينا هذا المساء ، مع شِنَفار ، وغوتيه وغوزلان ، وجيرار دي نرفال » وفي ١٧ « دعوت شنفار الى العشاء » وفي ١٨ : « إن شنفار اكثر خبرة من المقومين للفن الأشد قوة ، والسيد تيير يستشيره في مشتريات المتحف وهو وزير » وقد فعل بلزاك مثل ذلك فاستشاره بالنسبة لمتحفه الخاص ، وفي ٢١ : أيضا شنفار من أجل « لوحة مكررة » ثم ، وفجاة بعد هذه العلاقة السريعة العابرة ، لاشيء حتى الاول من حزيران حيث تبدل كل شيء شنفار يتشاجر مع السيدة دي برينيول في إلشوت ، وفي ٢٠ حزيران : شِنَفار مُحَطّ قيمة من الدرجة الاولى ، وفي ١٩ تموز يكون المستشار الجديد موره « الاكثر ثقة من شنفار الذي يمكن أن يخدعني » ماذا حدث ؟ وفي البدء من هو شنفار ؟

إن السيدة هانسكا تجهله ، وكذلك البلزاكيون ، عندما في ابن العم بونس لاقوا شنفار هذا ، الذي أعاد إليه بلزاك اسمه الحقيقي وكذلك صفته كرسام ، أو على الأقل « كعالم » في صناعة الرسم ، وقد اختصر دوره كخبير اختصاصي في اللوحات التي يراد شراؤها ، وبقي مجهولا بحيث موثل من بين حملة كنية شِنَفار في ذلك العصر مع المزخرف إيميه ، ومع المعماري ماري انطوان ، ولكن ليس أبدا مع الرجل الذي كان أخ أحدهما وابن عم الآخر وهو الرسام پول ، وهو ذو ميزات أخرى ، والواقع أن شخصيته الحقيقية تفسر ما تمّ حدوثه بعد ظهور وصف شخصية دوبورديو في « أي كوريه فرانسي » بتاريخ ١٧ نيسان ١٨٤٦ .

ولد في ٩ كانون الثاني ١٨٠٧ ، فهو إذا في الأربعين من العمر تقريبا « في ١٨٤٦ كدوبورديو . وقد وجب أن يتعرف بول شنفار على نفسه في شخص دوبرديو الموصوف ، ومن هنا جاء البرود الذي تطابق مع خروج

هذا الوصف الذي بدا أنه لا يقره رغم جودته أو بسبب هـذه الجودة ؛ وبالرغم من هذه المقارنة مع رفاييل المشار اليها في عنوان الفصل بشكل سؤال ، أو بسبب الملائمة بين هذا السؤال وجواب بلزاك عليه ، ذلك أن شنفار إن كان مجهولا اليوم فان « الرسام والفيلسوف » ، كان في زمنه ، وكما قال عنه لورا « أحد رجالنا الكبار » وكما وصفه بلزاك ، رساما جيدا بدون جدل ، لكنه غريب الأطوار ، متهوس ، نظري « حالم » دائما أكثر منه عملياً يحقق بعض « لوحات رمزية » ، إنه نوع من رفاييل معطل بكثير من التبحر والأفكار .

بالنسبة لشخص كفازونال فان دوبرديو « مجنون يقوده السعي الى القمر » أما بالنسبة لبيكسيو فهو «رسامنا الشهير دوبرديو،ولا تقل شهرة تطلعاته الانسانية عن موهبته » ، أما لورا ، الذي يعتبر رايه الأكثر كفاءة فيصرح بأنه « يتميز بمهارة اليد وعمق المعرفة » إن مجموع الشهادات التي يوحي بها شنفار لمعاصريه تبين ذات التنوع في ردود الفعل والتحيرات التي يثيرها ؛ كما أن كل سمة من سمات دوبرديو تبرهن عن صحة ونضج آراء بلزاك .

في ١٨٥٦ ، وصف تيوفيل سليفستر سعي شنفار الى القمر الذي « أضاع قسماً كبيرا من وقته في متابعة محاضرات الأساتذة كوزن وغيزو وڤيلمن في السوربون لكن استحوذ عليه مرض الدعاية ، وهوس وضع نظرية لكل فكرة ، ورمى بنفسه في اجتماعات ليلية غير قانونية لأنصار سان سيمون وفوريه ... ثم هيمنت عليه أيضا هذه الفكرة الكئيبة التي يؤسف أن تحل بفنان ، وهي أن الرسم قد انتهى من التعبير عن الأفكار السامية وفقد أعصابه في تطبيقات باهتة متكلفة » .

قبل ذلك بعشر سنوات ، كان بلزاك قد مثل هذا « الرفاييل نصير فوريه » المتنبىء ، وبين كرهه « للمزوقين » المنتقصين من قيمة الفن ؛ وكما اعتبر شنفار هدف الفنان الوحيد هو التعبير عن أفكاره الفلسفية » « وتصميمه على أن يحيي الروح الانسانية في جميع العصور » ، كذلك يحقق دوبرديو « صورة مجازية » واسعة ، احدى « هذه الدراسات الرمزية » التي « يحملها أفكاره » « وإذا أردتم الحضور لرؤيتها فستفهمون

جيدا انني قضيت في صنعها مدة سنتين ، ففيها كل شيء ! فمن النظرة الأولى التي نلقيها عليها ، نكتشف مصير العالم » ، في وصف هذا العمل وضع بلزاك إثباتا ، هو أفضل من خلاصة ، إذ أن شنفار أراد أن يمثل فعلا « مصير العالم » ، « فجرب منحه الغامض التركيبات بعد التركيبات

ليستخلص الفكرة العامة التي بدت له كنجمة الحضارة ،وليرتب على مدى القرون الشخصيات المهيمنة التي وسمت زمنها بطابع مسيطر » . لكن إن كان بلزاك قد جمع الأساس والشكل والنقد في بضع أسطر فقد لزمت ست مقالات ، على الأقل ، لغوتيه يساعده نرڤال ليصف في « لابرس » ، في العام ١٨٤٨ ، مشروع شنفار الفخم ، ولسيلفستر في العام ١٨٥٦ مالايقل عن اربعين صفحة نستخلص منها « إن حياة البشرية تلخص في نظره بتتابع من الرموز » من بينها ما لا يبدو تأثيره « كقلب ملفوفة ضخمة مطبقة » حيث القشرة « رمز الرجاء الحار » « قارب قدماء المصريين » الذي يرمز الى الروح الطافية على سطح المياه التي أصبحت سفينة نوح ، هذه السفينة التي سادها سر الاعتراف في المسيحية ، فروح التقمص العام ، بعد ان نضدت بالترتيب هذه الهيروغليفيات الناطقة جمعت كل السلالات البشرية حول شعار غلبة رمزي » . إذ أن هذا هو صميم فكرة شنفار : فدراسته الأساسية التي تتفرع عنها جميع الدراسات الأخرى في مشاهد تسمى **التقمص الاجتماعي** ، ويعطيها الشكل الدائري ليجعل الحركة الدائرية التي تتبعها العائلة الإنسانية أكثر تأثيراً على النظر والفكر.

في ١٨٤٦ ، كان بلزاك احد الأوائل واحد النادرين ، الذين حكموا ، وشكوا ، وادانوا مستقبل من قدر ان يكون رساماً كبيراً بحيث يقارن مع رفاييل . هذا التقدير لم يعترف عليه بودلير إلا بعد عشرة سنين في تأملات طويلة خص بها شنفار ونظامه التوفيقي في **الفن الفلسفي** والتي سجلها بلزاك باكراً بلمحات بارعة ! هكذا هذه الرفعة الفريدة التي يمنحها دوبرديو للنحت الذي يعتبره « أول الفنون » ، يسجلها دلاكروا في ١٨٥٤ في توافق شنفار مع ميكل آنج في تقدير « أن النحت الجيد هو ذلك الذي لا يتشابه مع الرسم ، بينما الرسم الجيد ، بالعكس ، هو ذلك الـذي

يتشابه مع النحت » ؛ كذلك ايضاً كانت فكرة دوبرديو في أن على الموسيقي أن يؤلف « موسيقى من طراز بيتهوفن » لتسمع عند مشاهدة « استعاراته » . هل أسرّ شنفار سابقاً لبلزاك ما سيسره بعد ذلك لدلاكروا : « بأن ما من شيء يقارن بالإثارة التي تسببها الموسيقى » شنفار هذا الفريد والمنسجم مع ذاته ، هو الذي التقى به بعد سنوات ، ريو دي مايو ، على الجادة كعهده ، متحمساً دائماً ، يقيم مرة أخرى ، « معرضاً استعلائياً في المطلق من الفلسفة » يداعب « الحلم » المتجدد لديه دوماً في تمثيل ضخم و « رمزي » « لسير الإنسانية » يقترن مع الموسيقى وبصورة خاصة موسيقى « بيتهوفن للاحتفال بها في لحظة سامية » .

أيكون بلزاك متنبئاً ؟ الواقع أنه في الفترة التي كان يصف فيها ملامح دوبرديو ، على الأرجح ، كان اصدقاؤه ، غوتيه ونرفال ، وبلانش الناقد السابق للفن في جريدته اخبار باريس يدعون بتطرف الى تأييد نظرة شنفار الذي كان يعد دراسة في لوحة للصالون ، وارادت الصدفة ان يطرح بلزاك قضية الرسام الفيلسوف في ١٧ نيسان ١٨٤٦ في جريدة « اكوريه فرانسي » وبعد ذلك بيومين ، أي في ١٩ نيسان ، تطرّق ارسين هوساي الى الموضوع ذاته في تقرير عن صالون ١٨٤٦ مما هيأ لتقدير أفضل لابتكار بلزاك : « منذ عشرين سنة ، والسيد شنفار رسام كبير بالتعمق والذكاء ، لكن شنفار حتى الآن كان مقدمة نتاجه... فهو يكد قريحته دوماً للدعوة الى الجمال والكبر والسمو ، إنه خطيب الرسم . أيقال أنه مقصر في الابداع ، وهو الموجود دائماً على المنابر ؟ هو قانط من أن يحلّق دائماً على ارتفاعات لا تدرك ، ولا يريد أن يكون رساماً من الدرجة الثانية ، فهل يحطّم أخيراً بيده المظفرة السلاسل المقيتة الموهنة للعزيمة ؟ ... إن رؤية لوحة للسيد شنفار تثير فضولاً جدياً لدى الفنانين ؛ هذه اللوحة تمثل الجحيم كما يراه دانتي ... فلنسرع للتعبير عن إعجابنا بالذكاء العميق المتجلي في هذه الدراسة ، والفن الرفيع في الرسم . » . كما ان بودلير ، من جهته ، لاحظ أن السيد شنفار فنان عالم في غاية الكمال ، ودارس منقّب قد برهن عن ذوق في اختيار موضوعه ومهارة في رسمه . وتوره ، وهو أحد معارف بلزاك

أيضاً ، ومن المؤيدين ، على ما يظهر لشنفار يشير : « إنه مفكر في غاية الكمال ، ورسام نشيط ، لكن طموحه للأسلوب الرفيع وللتعبير عن مدلول الفن يحد من خصب انتاجه ، ومن المؤسف ان يعتقد ان الفن الحالي هو خارج جميع التقاليد الكبرى كلها وأن الروح الداخلية قد تلاشت بحيث يلزم إيمان متجدد بطرائق حديثة لبعث هذا الاليمازار » .
« إن اصدقائي يحضّرون مقالات لكنني أخشى الا يتمكنوا من الذهاب بعيداً » قال دوبرديو.ــ باه ، إنهم لن يذهبوا الى ابعد من المستقبل. . . » المستقبل . . . « لقد قتله مذهب فوريه » لأن « الرأي إذا لم يعط الموهبة، فانه يفسدها دوما » قال لورا المعبر عن فكر بلزاك الذي يعتبر أن الرسام الفيلسوف مقضي عليه لأن الفكرة قد قتلت المفكر ؛ والجحيم يبقى دائما مقدمة نتاج ميت : شنفار لن يحقق أبداً حلمه الكبير .

الحق يقال ان الحظ قد تدخل ليؤيد رأي بلزاك : ففي ١٨٤٨ يقترح لدرو رولن على شنفار تنفيذ تقمصه الشامل في البانتيون واعد شنفار لوحاته على ورق مقوى لمساحة ٦٤ر٢٦٦ م للمحيط ولفسيفساء الأرض وبإيمان لا يتزعزع بفلسفة فورية وبمشاركة انصار تجمعه ينصرف الى العمل بكامل طاقته كعامل بسيط لا يطلب إلا عشر فرنكات في اليوم لنفسه ، ومثل ذلك للمساعدين الأربعة أو الخمسة الذين يعملون تحت إشرافه . « وهل هذا الرجل مخلص حسن النية » ؟ يهتف غازونال ، وقد عرته الدهشة ــ « إنه شديد الإخلاص » يعقب بيكسيو لكن أمثال بيكسيو في ١٨٤٨ وجدوا هذا الاخلاص الكبير بعيداً عن الذوق الملائم ، وكذلك رجال الدين ، ودسائس الزملاء دعمت دسائس أولئك ، فأعفي شنفار من تزيين البانتيون الذي ارتفعت عليه راية الكهنوت عالية » ولم يقتل المفكر وحده الفكرة .

من المدهش الا يتم التعرف على شنفار في شخصية دوبرديو الروائية، لكن ما يدعو الى الأسف خاصة أن دوبرديو لم يثر كفرنهوفر مثلا ، أو جوزيف بريدو أو بيير غراسو الأفكار التي تحرّض عليها عبقريته ، ليس فقط بالنسبة للابداع في الرسم ، وإنما في كل إبداع فني لأنه أحد احسن المفاتيح المعبرة عن فكر بلزاك وابداعه وتطورهما .

إن فرنهوفر بطل **التحفة المجهولة** ، ليس له نموذج حقيقي : فقوة فكره المدمرة وحتى تفكير پوسن القائل « يجب على الرسامين الا يستغرقوا في التأمل إلا والفرشاة في يدهم ، ليسا بعد كل اعتبار إلا نظرية ، فوجود شنفار قدّم لبلزاك تمثيلا حيا لحقيقة أساسية لديه وطريقة لإفهام رأيه بشكل اكثر وضوحاً من اعتبارات لورا : « لقد قتله مذهب فوريه . . . فهذا جمهوري ، وذاك من اتباع سان سيمون ، أو ارستقراطي ، أو كاثوليكي أو معتدل ، أو من العصر الوسيط ، أو الماني في رأي مسبق . لكن إن لم يعط الرأي الموهبة ، فانه يفسدها دوماً » وأخيراً في الخلاصة : « إن رأي الفنان يجب ان يكون الصدق في نتاجه » .

هوذا إذاً ، في نهاية الملهاة الانسانية ، المبدأ الحقيقي لبلزاك المتعذر شرحه بغير ذلك ، أو الذي أسيء شرحه غالباً ، وخاصة من قبل الأشخاص « ذوي الآراء » ، على حساب مهارات جدلية مدهشة . إن إلحاق بلزاك بأية إيديولوجية ماضية أو حاضرة ، واعتباره طليعة مبشرة بمعتقد رجعي حالي ، أو بالماركسية أو بالواقعية الاشتراكيةفيالفن هوبمثل استحالة وعبثية السعي لتصنيفه في أحد مذاهب او مدارس عصره : الرومانسية ، أو العرش والمذبح ، أو البونالدية ، أو التشيّع للملكية ، ثم الدهشة بأنه لا ينخرط في ذلك كلياً ، إن دوبرديو يوضح بشكل تام هذه الواقعة على الأقل .

يجب عدم إساءة الظن فبلزاك لا يهاجم عبر هذا الرفاييل العقيم مذهب فوريه والا السان سيمونية مثلاً ، وقد اعترف بأهمية هذين المذهبين ، بل إنه اهتم بهما بجدية وذكاء ، باعتبار أنهما مذاهب « آراء ، أما كمبدع فعليه أن يرفضهما ، فإذاً كانت الفكرة تقتل المفكر » فبالأحرى أن يقتل « الرأي » المبدع ؛ ودون أن نستغل فرويد الذي ينظر الى الدين من زاوية العصاب النفسي ليختزل كل بناء إيديولوجي ويقصره على هذيان سريري ، يبدو أن الوقائع قد صوبت رأي بلزاك وبرهنت أن « الايديولوجية ، بخلاف العلوم لها جواب على كل شيء ، وهي تتحرك في الكون دون أن تصادف عقبة ، وتطوّع مباشرة غير المتوقع ، وهي قادرة على أن تعلل الإيديولوجي ذاته .

إن هذا التحريك السحري للحقيقي الذي يفسر انسحاباً جزئياً للحقيقي يقرّب الايديولوجية من الهذيان الذي يقوم بمهمة وقاية الأنا من حقيقة لا تحتمل » .

إن بلزاك لايمكنه إلا رفض « الرأي » كل رأي ، فداراته الذهنية كمبدع تطرحه ، كما تطرح العضوية طعماً غير ملائم يهدد وجودها . وبما انه « مبدع » نظامه الخاص في التفكير ، الذي وضع في بداياته ، مع الدراسات الفلسفية المستقبلية أساس عمله ، فان كل نظام آخر سيغدو في عينيه خطيراً ، إذ انه إن تمثل فسيحل محل نظامه . وان لم يتمثل فسيفسد عليه ترتيبه ، وهو في جميع الأحوال وباعتباره فكرة جاهزة يمثل تهديداً على قدرته في الخلق وتحريك ما هو حقيقي .

من جهة أخرى فان بلزاك قد اتخذ الحيطة في المثلين الغافلين بالنسبة للأسس النظرية للدراسات الفلسفية التي كان قد تخلى عنها لنحو عشر سنوات من أجل دراسات طبائع ، لأن اي رأي ، ولو كان شخصياً ، سيهدد إبداعه ؛ وتطور هذا الابداع قد بيّن كم اقترب من الحقيقة باختياره المجتمع الفرنسي موضوعاً لنتاجه ، لقد اراد في البدء أن يكون فيلسوفاً أكثر منه روائياً ، فأصبح ، وقد كرر ذلك مرات عديدة بحيث يجب الاقتناع به ، « مؤرخا أميناً وكاملاً » ، « لكنه مؤرخ فقط » بل « مؤرخ أكثر منه روائياً » .

إذاً راح بلزاك يبدع انطلاقاً من الواقع ، حيث انه بعكس الايديولوجي لايسعى الى أن يتوقاه مهما كان «لايطاق» فهذا الواقع وكما هو سيبقى اساس دراسات الطبائع وكل الملهاة الانسانية ؛ ومما يلفت النظر ان مؤرخاً ، هو لويس شفاليه ، هو خير من رأى في هذا النتاج « وقائع وليس أفكاراً » ، ولدى بلزاك « فان نفسية المؤرخ هذه هي التي يتعرف عليها التاريخ فيه وسيدهش لها » والأدب والنقاد ، حتى البلزاكيون منهم ، هم غالباً متأخرون عن التاريخ والمؤرخين ؛ فالوقائع مجهولة أو غير مقدّرة . أيعاب على الملهاة الانسانية أنها في سواد لا يحتمل ؟ إن هذا يعني لوم بلزاك على انه كان كما يريد أن يكون ، وانه نجح في ما اراد أن يفعل . هذا ما أراد دوبرديو أن يعلمنا عن بلزاك وإبداعه .

هذا هو ايضا تبرير وضع الدليل حيث من خلال الواقع في سنتي ١٨٤٤ و ١٨٤٥ ، دقق بلزاك في التاريخ الاجتماعي لتلك الحقبة وبيّن **الطبائع** كما تطورت منذ انطلاق **دراساته** ؛ فكل « فضولية انسانية » تسجل إحدى التحولات الحاصلة في المجتمع ، تحول آليات المال مع ڤوڤينه ، المرابي على الطراز الجديد ، ومع تيله من أجل النفوذ المتزايد دائماً للمصارف على الدولة ؛ تحوّل الصحافة التي يتزايد تأثيرها أكثر فأكثر على القضايا السياسية والخاصة ، من قبل « آتيين » عوام ، وجهلة ، ومغرورين مثل جايار ؛ وتحول في التجارة حيث يبرهن غوديسار الثاني ، أو ڤيتال أو ماريوس أنها أخذت تستند بشكل رئيس على الخداع ، والدعاية ، والواجهات ، والبريق ، وتحوّل في الطبقات الاجتماعية ، التي لم تعد تنضداتها التدرجية إلا مظهراً منذ أن تمكنت « ممثلة بكماء » في الأوبرا أن تتعاظم على زوجة محافظ ومرابية أن « تقاوم » كونتة ، وبواب اعتبر « سبب سعادة » لعشرات الأشخاص ؛ وتحوّل في المصالح ووسائل تأمينها بغير العلاقات ومصائر البشر إذ كما قال غازونال على سبيل المثل : « إن صناعتنا تصارع ضد صناعة القارة بمساعدة المصائب ، كما كان نابوليون يصارع أوروبة بمساعدة الفيالق ... » « بمساعدة المصائب » ... « والطبقات العاملة » التي تتحمل النتائج ، هي في طريقها لتصبح طبقات خطرة .

هذه التحولات في الطبائع تؤدي الى تحولات في الأفكار والايديولوجيات، وتنتج عنها جميع التهديدات التي تثقل في العام ١٨٤٦ على مجتمع فقد توازنه . فنكسة شباط ١٨٤٨ غدت قريبة جداً ، وبوبليكولا ينذر بها مع « آرائه » ؛ واذا كان بلزاك لا يتبناها كما هو موقفه بالنسبة للآراء الأخرى فانه لا يهملها لوقت طويل ، بل يستخدمها ليكشف للمجتمع عن ماهيته، وأنه في وضعه مهدد ، وهذا ما لم يعرف أي « مؤرخ » باستثناء توكفيل أن يراه في حينه ، وأن يريه للآخرين في الوقت المناسب .

لكن « مؤرخ الطبائع » متمسك في أن يعطي الفكر أكثر من الحرف أحداثاً يركبها » والروائي يعمل من أجله في « التحريك السحري للواقع » . كل شخص حقيقي يوجد مخلوقاً من جديد ــ بعد إجراء جميع

التغييرات الضرورية – أولا مع تركيب بلزاك للأحداث ، ثم مع طرائقه الخاصة في **الشخصيات المتجددة الظهور** ، **والنماذج المتجددة الظهور** ، من رواية الى رواية حيث كل سجية أصيلة تظهر ، وتتضاعف أحيانا معاداً تجسدها في شخصية أخرى ، وأحيانا أخرى في واقعها الأول المحرك سابقاً والمعرّض في الغالب لتطعيمات من حقائق أخرى تطلبتها تركيبات أخرى للأحداث .

ما من نتاج آخر لبلزاك ، مثل **الممثلين الغافلين** يظهر أفضل ، أو لا يخفى إلا قليلا ، العلاقات المتبادلة بين الروائي والمؤرخ ، إذ أن الدليل يجري وينتهي على « أحداث » روائية (برهان وخاتمة) ، وبما أن « الفضوليات الانسانية » الحقيقية تختلط مع شخصيات متجددة الظهور : بيكسيو أو لورا ، أو « الخطباء » ، ڤينيون ، كناليس ، تراي، جيرو ، راستينياك ؛ فانه لذو دلالة أن نرى بالمقابل « فضوليات انسانية » غير محركة ، أو مسودات لاحقة **للممثلين الغافلين** ، أو سيدة فونتين سبق وضعها ، أو شخصيات حقيقية سبق تحريكهم ، على سبيل المثال بيكسيو **المرآة السامية** المتولدمن مونيه ثم ألّف روائياً ، ولفينيون – غوستاف بلانش في **بياتريس** المتمم بجوزيف بلانش وبلرمينيه ، وكناليس – لامارتين في مودست مينيون ، المطعّم بهوغو وپيات وليِسْت الذين جنّسوا بلزاكيين فأصبحوا بيكسيو ، وكلود ڤينيون ، وكناليس في **الملهاة الانسانية** ، وهم يعيشون حياة غير حياة لامرتين هي حياة العالم الذي أعاد خلقه بلزاك عالم أكثر واقعية من صورة فوتوغرافية لأن العالم عين بلزاك ليست « شيئية » . بل إن كلمة « شيئية » تحدد آلية انتقال الرؤية ، وهي دقيقة لكنها محدودة وفاقدة الذكاء . أما رؤية بلزاك فهي موضوعية ، وفي النهاية أكثر دقة ، لأن الشيء الأساسي ، وما له دلالة ، هما اللذان سيقع عليهما الاختيار وسيعاد نقلهما للتوصل الى تمثيل حقيقة أكثر جلاء ، وأكثر أصالة وأكثر ديمومة .

آن ماري مينينجه

الممثلون الغافلون

ينتسب ليون دولورا ، رسامنا الشهير للطبيعة ، إلى احدى أنبل الأسر في أقليم « روسيّون » ، الأسبانية الأصل ، التي ، اذا كانت تعرف بعراقة محتدها ، ما تزال منذ مائة سنة تعاني فاقة « الهيدالغو »(١) مضرب المَثَل . جاء باريس مشياً من محافظة « البيرينية الشرقية » وكل مافي جيبه أحد عشر فرنكا فنسي فيها ، ان جاز القول ، شقاءات طفولته وعائلته وسط الشقاءات التي لابد من أن تنتاب الرسّامين المبتدئين الذين تقتصر ثروتهم على موهبة مقتحمة . ثم كانت هموم النجاح اسباباً أخرى للنسيان .

اذا كنتم تابعتم المجرى الملتوي والكيفي لهذه «الدراسات» فربما تتذكرون «ميستيغري» تلميذ «شينرْ» ، أحد ابطال «بداية في الحياة» (مشاهد من الحياة الخاصة) ، وظهوره في بعض المشاهد الأخرى . في عام ١٨٤٥ لم يعد رسّام الطبيعة ، فنافس رويسدال وهوبيما ولورّان(٢) يشبه الرسّام المبتدىء الفقير الذي رأيتم . اصبح ، وهو الرجل الشهير ، يملك بيتاً جميلاً في شارع برلين غير بعيد عن قصر برامبورغ حيث يقطن صديقه بريدو ، وبالقرب من منزل شينرّ استاذه الأول . غدا عضواً في المجمع الفني وبرتبة ضابط بين حملة وسام جوقة الشرف . صار في التاسعة والثلاثين وله دخل مقداره عشرون ألف فرنك وصارت لوحاته تُشرى بالثمن الغالي . والذي

---

(١) الهيدالغو : أحد أفراد الطبقة الدنيا من فئة النبلاء في اسبانيا . والقصد هنا الجمع طبعاً .

(٢) رويسدال (١٦٢٨ – ١٦٨٢) أعظم رسامي الطبيعة الهولنديين – هوبيما (١٦٣٨ – ١٧٠٩) تلميذ رويسدال رسام طبيعة مبدع – لوران (١٦٠٠ – ١٦٨٢) أحد الأعلام الفرنسيين في رسم الطبيعة .

بدا له اعجب من كونه يُدعى احيانا الى الحفلات الملكية الراقصة ، هو ان اسمه الكثير الورود منذ ستة عشر عاماً في صحافة أوربا ، انتهى بأن نفذ الى وادي «البيرينيةالشرقية» حيث يعيش خاملون حقيقيون ثلاثة «لورا» ، أخوه الاكبر وابوه وعمّة عجوز هي الآنسة «اورّاكا إي لورا» .

من طرف الأم لم يبق للرسام الشهير سوى ابن خالة في الخمسين من العمر من سكان بلدة صناعية صغيرة في المحافظة . كان ذلك القريب أوّل من تذكّر ليون . وفي عام ١٨٤٠ فقط تلقى ليون دو لورا ، رسالة من السيد «سيلفستر بالافوكس — كاستل غازونال» (المسمى ببساطة غازونال)ردّ عليه فعلاً هو نفسه ، اي ابن المتوفّاة ليوني غازونال زوجة الكونت فيرنان ديداس اي لورا .

وذهب القريب سيلفستر غازونال في ربيع عام ١٨٤١ يعلم اسرة آل لورا الشهيرة المجهولة ان ليون الصغير لم يذهب الى «ريودي لابلاتا» كما كان يُظن وانه م يمت هناك كما كان يظن وانه أحد ألمع عباقرة المدرسة الفنية الفرنسية ، الأمر الذي لم يصدقه أحد . وقال الأخ الاكبر ، دون خوان دولورا لابن خالته غازونال انه ضحية طنّاز(١) من باريس .

لكن ، بما ان غازونال المذكور عزم الذهاب الى باريس ليتابع فيها قضيه كان محافظ «البيرنييه الشرقية» ، بعد دعوى عدم اختصاص ، انتزعها من القضاء العادي ونقلها الى مجلس الدولة فقد نوى ذلك الريفي

---

(١) الطناز من يسخر بقول أو بفعل من اخر . (ويقرب منه التعبير العامي : صاحب مقالب)

استجلاء الأمر ومحاسبة الرسام الباريسي على وقاحته . وحدث أن السيد غازونال ، الساكن في «غرفة مفروشة حقيرة» في شارع «كْروا— دي— بيتي—شان» دهش لرؤية قصر شارع برلين . واذ أُخبر هناك أن ربّ المنزل مسافر في ايطاليا تخلّى موقّتا عن المحاسبة وشك في أن يرى قرابة الأم وقد اعترف بها الرجل الشهير .

ومن عام ١٨٤٣ الى عام ١٨٤٤ تابع غازونال قضيته . كانت تلك المنازعة المتعلقة بموضوع مجرى ومستوى مياه وسدّ يقتضي الإزالة والتي تدخلت فيها الادارة الحكومية يدعمها بعض سكان الضفاف ، تهدد وجود المصنع ذاته . وفي عام ١٨٤٥ كان غازونال يعتبر انه سيخسر كليّة تلك القضية لأن سكرتير قاضي التلخيص المكلّف بوضع التقرير أسرّ اليه بأن ذلك التقرير سيكون مخالفاً لطلباته الختامية ، ولأن محاميه أيّد له ذلك . كان غازونال ، مع انه قائد الحرس الوطني في مدينته واحد أمهر صناعيي المحافظة يجد نفسه ضئيل الشأن جداً في باريس ، وقد هاله غلاء المعيشة وثمن اتفه الاشياء لدرجة ان لبد في فندقه الزري . ذلك الجنوبي ، الذي حُرم من الشمس كره باريس التي سمّاها «مصنع روماتيزم» ، وبجمعه مصاريف قضيته ونفقات إقامته كان يعاهد نفسه على تسميم المحافظ أو حبسه في متاهه . في ساعات غمّه كان يخمد انفاس المحافظ وفي ساعات بهجته كان يكتفي بحبسه .

ذات صباح ، وقد انتهى من إفطاره ، ومع استمراره في التذمّر ، تناول الصحيفة . هذه الأسطر التي كانت تختم مقالاً : «رسّام طبيعتنا العظيم ، ليون دولارا ، الذي عاد من ايطاليا منذ شهر ، سيعرض عدة

لوحات في «الصالون» وهكذا سيكون المعرض ، كما هو واضح ، رائعاً جداً . . . » سيطرت على ذهن غازونال كما لو ان الهاتف الذي يخاطب المقامرين حين يربحون قد أقرّها في مسمعه . وبتلك المبادرة التي تميّز أهل الجنوب قفز غازونال من الفندق الى الشارع ومن الشارع الى عربة وذهب الى شارع برلين عند ابن خالته .

أبلغ ليون دولارا ابن خالته غازونال انه يدعوه الى الغداء في «مقهى باريس» في اليوم التالي لأنه كان إذ ذاك مشغولاً بحيث لايسعه الاستقبال . وروى غازونال ، كرجل من الجنوب ، كل متاعبه للخادم .

وفي اليوم التالي ، عند الساعة العاشرة ، كان غازونال ، المفرط التأنق لأجل المناسبة (كان يرتدي بذلته الرسمية الزرقاء الزاهية ذات الازرار المذهّبة وقميصاً منتفخ القبّة وصدرة بيضاء وقفازين أصفرين) ينتظر مضيفه مراوحاً طيلة ساعة في الشارع بعد ان علم من «القهواتي» (وهو اسم اصحاب المقاهي في الريف) ان أولئك السادة يتغدّون عادة بين الحادية عشرة والثانية عشرة .

— قال وهو يروي ما عرض له لأهل بلده : نحو الحادية عشرة والنصف إذا بباريسيين «في سترة طويلة بسيطة» و «لايُؤبه لهيئتهما» يصرخان حين ابصراني في الشارع : ها هو غازونالك . . . . .

كان ذلك المخاطب «بيكسيو» الذي استصحبه ليون دولوزا «ليتنفّخ » ابن خالته أمامه .

«صاح ليون الصغير وهو يضمني بين ذراعيه : لاتغضب منّي يا ابن خالتي العزيز فانا في خدمتك» قال غازونال لاصدقائه لدى

عودته وأردف : «كان الغداء رائعاً . وكدت أكذّب عيني وأنا أرى عدد القطع الذهبية التي استلزمتها قائمة الحساب . ان اؤلئك الناس يكسبون ولا ريب بثقلهم ذهباً لأن ابن خالتي أعطى الندل «ثلاثين صولاً» أي الأجر اليومي لعامل » .

خلال ذلك الغداء «الفاحش» ، بما انه استُهلِك فيه ست «دزينات» من محار أوستند وستة اضلاع خروف على طريقة «سوبيز» وفروّج على طريقة مارنغو (بالزيت والفطر) وصلصة توابل كثيفة بالأربيان(١) وبسلّي ورقاقة محشوة بالفطر ، مع ثلاث زجاجات من نبيذ «بوردو» وثلاث زجاجات من نبيذ «شامبانيا» يُضاف الى ذلك اقداح القهوة والمشروبات الروحية ، عدا اللُهجات(٢) المتنوعة . كان غازونال رائع التدفق في حملته على باريس . شكا الصناعي النبيل من طول الأرغفة ذات الاربعة ارطال ومن ارتفاع البيوت ومن عدم اكتراث المارة ببعض ومن البرد ومن المطر ومن غلاء العربات ذات المقعد الواحد ، وكل ذلك بظرف جعل الفنانين يستحبان غازونال بصدق ويدعوانه الى سرد قضيّته :

قال بلهجته البروفنسية المثقّلة : قضيتي موضوعها بسيط جداً . أنهم يريدون مصنعي . ووجدت هنا محامياً غبيّاً أنقده عشرين فرنكا كل مرة كي يفتح عينيه وألقاه على الدوام نائماً . . انه بزّاقة تركب عربة وانا أمشي على قدميّ . إنه ينهبني بشكل دنيء وأنا لا أفعل غير أن أزرع الطرقات روحة وجيئة وألاحظ انه كان علي استئجار عربة...

---

(١) الاربيان نوع من القشريات البحرية شبيه بالسرطان لكن قد يبلغ طوله / ٥٠ / سنتمتراً
(٢) اللهجة : ما يتعلل به قبل الطعام (المقبلات) .

فلا ينظر هنا الاّ الى الناس المختبئين في عربتهم . . . ومن جهة ثانية أن مجلس الدولة مجموعة تنابيل يسلمون اعمالهم الى عصابة من عديمي الذمّة يرشوهم محافظنا . . . . هذه هي قضيتي . . . ايهم يريدون ، مصنعي ، وسيحصلون عليه . . . وسيدبّرون امورهم مع عمّالي الذين يقاربون المائة ويجعلونهم يبدّلون رأيهم بضربهم بالهراوات ....

قال رسام الطبيعة : هوِّنْ عليك يا ابن خالتي ، منذ متى انت هنا ؟

— منذ عامين . . . آه ، ان منازعة المحافظ سيدفع ثمنها غالياً ، سأقضي على حياته واقدّم حياتي الى محكمة الجنايات . .....

— من مستشار الدولة الذي يرأس الشعبة ؟

— صحفي سابق لايساوي عشرة صُولات(١) ويدعى ماسّول وتبادل الباريسيان النظرات .

— والمقرر ؟

— وغد أكبر ، إنه قاض استاذ احدى الموادّ في السوربون كتب في إحدى المجلات أكنُّ له ازدراءً عميقاً . . . .

قال بيكسيو : كْلود فينيون

ورد الجنوبي : هو بذاته . . ما سول وفينيون ، ذلك هو عنوان الشركة التي لامبرر لها ، عميلة محافظي .

قال ليون دولارا . هناك مجال . إعلم يا ابن خالتي ان كل شيء ممكن في باريس ، في الخير كما في الشر : حقّاً أو باطلاً . كل شيء يُصنع ، كل شيء يُنقض ، كل شيء يُجدَّد .

---

(١) الصول (أو السو) جزء من عشرين من الفرنك

— وحق الشيطان لن أمكث فيها عشر ثوانٍ اخرى ، انها البلد الاشدّ إملالاً في فرنسا .

في تلك الأثناء كان ابنا الخالة وبيكسيو يتنزهون رواحاً ومجيئاً في تلك الرقعة الاسفلتية حيث من الصعب ان لا يشاهد مارّاً فيها ، بين الساعة الواحدة والساعة الثانيه ، بعض من الشخصيات التي تنفخ لها الشهرة بأحد ابواقها . قديماً كانت الساحةُ الملكية ، ثم الجسر الجديد هما اللذان تمتعا بهذا الامتياز الذي حازه اليوم شارع الايطاليين.

وقال إذ ذاك رسام الطبيعة لابن خالته : ان باريس معزف يجب معرفة كيفية العزف عليه اذا بقينا عشر دقائق هنا سأعطيك درساً . هيه ، انظر ، — ورفع عصاه مومئاً الى شخصين يخرجان من مسرح الأوبرا .

وسأل غازونال : ما هذا ؟

«هذا» كان عجوزاً بقبعة ظلّت معروضة في الواجهة ستة اشهر وبثوب بالغ التكلّف وبشال من ترتر حائل اللون ، بقي وجهها عشرين سنة في غرفة رطبة لاينبىء معطفها الشديد الانتفاخ بوضوح اجتماعي أرقى من وضع بوّابة سابقة ، اضافة الى فتاة صغيرة ممشوقة رقيقة لم يعد في عينيها المؤطرتين بأهداب سوداء مظهر براءة وتنمّ سحنتها على تعب شديد لكن وجهها الناعم القسمات كان نضراً وشعرها وافراً وجبينها حلواً متحدّياً وصدرها نحيفاً ، وبكلمة موجزة كانت فاكهة فجّة .

واجابه بيكسيو : «هذا» «جرْذ»(١) مزيّن بأمّه .

(١) التلميذ (والتلميذة)الصغير في معاهد الرقص الكلاسيكي يسمى بالفرنسية«جرذ = rat

فصاح دهشاً : ماذا ؟ جرذ ؟ ماذا تعني ؟

فقال ليون الذي أشار برأسه محيّياً الآنسة «نينيتّ» : هذا الجرذ يمكنه أن يُكسبك قضيتك .

وأجفل غازونال لكن بيكسيو كان ممسكاً به من ذراعه منذ مغادرة المقهى لأنه لاحظ تضرجاً مفرطاً في وجهه .

— هذا الجرذ الخارج من تدريب في الاوبرا ذاهب لتناول وجبة خفيفة وسيعود بعد ثلاث ساعات ليرتدي لباسه اذا كان سيظهر هذا المساء في عرض الرقص ، لأننا الآن في يوم الاثنين . هذا الجرذ عمره ثلاثة عشر عاماً ، فهو جرذ يُعتَبر مُسِناً . وبعد عامين من الآن ستكون قيمة هذه المخلوقة في الساحة ستين الف فرنك . ستغدو ذات شأن أو صفراً ، راقصة عظيمة أو «سيّارة» اسماً شهيراً أو بنت هوى مبتذلة . انها تجتهد منذ كانت في الثامنة . وهي كما رأيت مُنهكة فقد اتعبت جسمها هذا الصباح في درس الرقص وهي خارجة من تمرين حيث الحركات صعبة مثل لعبة الاخشاب المركّبة وستعود هذا المساء . والجرذ عنصر من عناصر الأوبرا وهو بالنسبة الى الراقصة الاولى كما صبّي المكتب بالنسبة الى الكاتب بالعدل ، الجرذ هو الأمل .

وسأل غازونال : من يُنتج الجرذ ؟

وردّ بيكسيو : البوّابون ، الفقراء ، الممثلون ، الرقاصون . ليس الاّ الفقر المدقع يمكن ان يدفع طفلة في الثامنة الى تسليم قدميها ومفاصلها لأقسى الأعذبة والى التزام العفة حتى السادسة عشرة أو الثامنة عشرة

لمجرد أمل في النجاح فقط والى استصحاب عجوز كريهة كما تضع انت سماداً حول زهرة جميلة . سترى يمّر ، بعضاً خلف بعض جميع ذوي الموهبة صغاراً وكباراً ، فنانين مبتدئين أو مكتملين ، الذين يُعلون ، لمجد فرنسا ، صرح كل يوم هذا الذي يسمّى «الأوبرا» ، مجمع القوى والعزائم والقرائح ، الذي لايوجد الاّ في باريس . . . .

واجاب غازونال منتفخاً : لقد سبق لي أن شاهدت الاوبرا .

— فردّ الرسّام : من على كرسيّك بثلاثة فرنكات وستين سنتيماً ، كما شاهدت باريس في شارع «كْروا — دي — بيّي — شان» .... دون أن تدرك شيئاً منها .... ماذا كان يُعرض في الأوبرا يوم ذهبت اليها ؟

— «غيّوم تيكّ»

قال رسام الطبيعة : حسناً ، قد اطربك ولا ريب ثنائي «ماتيلد» الكبير . والآن ، بماذا في ظنك انشغلت المغنّية عندما غادرت خشبة المسرح ؟ ......

— إنها ... ماذا ؟

— جلست تأكل ضلعي غنم غير ناضجي الشي كانت خادمتها هيأتهما لها . ....

— آه ، عجباً ....

— كانت الماليبران(١) تتقوى بالمشروبات الكحولية ، وهذا

---

(١) مارياديي لا فيليسيداد غارسيا ، السيدة « ماليبران » (١٨٠٨ — ١٨٣٦) مغنية من أصل إسباني نالت شهرة عظيمة في فرنسا وكان بين الذين « مجدوها » الشاعر الفريد دوموسيه .

ما أودى بها ... وإليك شيئاً آخر ، إنك شاهدت فرقة الرقص ، ستشاهدها ثانية مارّة هنا في لباس الصباح البسيط دون أن تدري أن قضيتك متوقّفة على بعض من تلك السيقان .

— قضيتّي ؟

— أنظر يا ابن خالتي . هذه ما تسمى «سيّارة» .

وأشار ليون الى احدى تلك المخلوقات البديعة اللائي يكنّ في سن الخامسة والعشرين قد عِشن ستين سنة ، ذوات الجمال الحقيقي والمؤكّد الدوام بحيث لا يحتجن الى إبرازه . كانت طويلة رشيقة الخطو لها ثبات نظر ذواقة وكانت زينتها تدل على بساطة مُبهظة .

قال بيكسيو : هذه «كارابين» ، وحيّاها والرسّام بهزة رأس ردّت عليها بابتسامة .

— وهذه واحدة أخرى تستطيع عزل محافظك .

— «سيارة» ! ! ! ما معنى هذه التسمية ؟

— «السيارة» هي «جرذ» فائقة الحس باعتها أمها ، الحقيقية او المزورة ، يوم لم تستطع ان تكون نجمة أولى ولا ثانية ولا ثالثة في الرقص وفضلت وضع عضوية الفرقة على كل وضع سواه للسبب القوي الذي هو أنها بعد أن استنفدت صباها لم يكن يسعها اختيار غيره . كانت وستُرفض في المسارح الصغيرة حيث يحتاج الى راقصات عاديات ، وما كانت لتنجح في المدن الثلاث في فرنسا حيث تعرض حفلات رقص كلاسيكي ، وما كان لديها مالٍ كاف أو رغبة للسفر

الى الخارج ، ذلك أن مدرسة الرقص الكبرى في باريس تزود ، لعلمك، العالم بأسره براقصين وراقصات . كما أنه ، حتى تُصبح الجرذ «سيارة» ، أي عضواً مغموراً في فرقة «البالية» ، لابد من أن يكون هناك رابط وثيق أبقاها في باريس : رجل غني لم تُحبه أو شاب فقير تحبّه بافراط . وهذه التي شاهدتها تمر والتي ربما تخلع ثياباً وترتدي ثياباً ثلاث مرات هذه الليلة ، تظهر في زي اميرة أو فلاحة أو فتاة من جبل «تيرول» أو غير ذلك راتبها الشهري نحو مائتي فرنك .

— لكنّها آنق من زوجة محافظنا .

قال بيكسيو : لو ذهبت الى بيتها لوجدت وصيفة وطباخة وخادمة . انها تقطن شقّة فاخرة في شارع «سان — جورج» . وبكلمة موجزة ، انها ، في نسب الثروات الفرنسية الحالية الى الثروات القديمة ، «فَضَالة» فتاة الأوبرا في القرن الثامن عشر . ان كارابين سُلْطة . فهي تحكم الآن «دوتييّه» ، المصرفي البالغ النفوذ في المجلس ....

سأل غازونال : وفوق درجتي الباليّه هاتين ماذا يوجد ؟

قال له ابن خالته وهو يشير الى عربة أنيقه تمر عند طرف السكة في شارع «غرانْج — باتلبير» : انظر ، هذه احدى نجمات الرقص الأولى واسمها على الاعلانات يجتذب باريس باسرها وهي تكسب ستين الف فرنك في العام وتعيش على مستوى اميرة ، ولا يكفي ثمن مصنعك لشراء حق تحيّتها ثلاثين مرّة .

— الحق اني اقول ذلك لنفسي : لن يكون ثمناً غالياً .

وقال له بيكسيو : هل ترى في مقدّمة العربة هذا الشاب الوسيم ، إنه فيكونت عريق النبالة وهو «الوصيف» الأول في حاشيتها . فهو

الذي يشرف على اخبارها في الصحف والذي يتولى حمل خطابات سلم أو حرب في الصباح الى مدير دار الأوبرا أو الذي يهتم بالتصفيق الذي يستقبل ظهورها على المسرح أو يشيّع خروجها .

ـ هذا يا سيديّ العزيزين هو «الضربة القاضية» ، لم اكن اتصوّر باريس هكذا .

قال بيكسيو : إذن ، تعلّم على الاقل كل ما تمكن رؤيته في عشر دقائق في ممّر الأوبرا . أنظر .

كان شخصان يخرجان في تلك الأثناء من الممّر . رجل وامرأة . لم تكن المرأة جميلة ولا دميمة . كان لباسها يحمل ذلك الطابع من اللباقة في الهيئة وفي الخياطة وفي اللون الذي ينم عل فنّانة وكان الرجل يشعّ بمظهر مـُغن .

قال له بيكسيو : هذان مغنٍ «نصف جهير» و«نجمة رقص أولى مساعدة» . «نصف الجهير» رجل فائق الموهبة لكن دور نصف الجهير ثانوي في التوليفة(١) وهو لا يكاد يكسب ماتكسب الراقصة العادية . و«النجمة المساعدة» التي كانت شهيرة قبل ظهور «تاغليوني» و«إلسْلِرْ» (٢) قد حافظت عندنا على الرقص التعبيري والايمائي . ولولا ان

---

(١) التوليفة Partition مجموعة أقسام مؤلف موسيقي مضمومة لتغنى في ذات الوقت، كل بالصوت الذي لحن لطبقته .

(٢) ماريا تاغليوني (١٨٠٤ ـ ١٨٨٤) راقصة ايطالية كانت اول من عرضت باليه « السيلفيد » وهو أول باليه رومنسي ـ فاني إلسلر (١٨١٠ ـ ١٨٨٤) راقصة نمسوية كانت احدى أعظم راقصات الباليهات الرومنسية .

الأخريين أبدتا في الرقص شاعرية لم تكن ملاحظة حتى عهدهما ، لكانت هذه نجمة أولى غير انها في الصف الثاني اليوم . ومع ذلك فهي تقبض ثلاثين ألف فرنك ولها كصديق وفيّ عضو في مجلس اعيان فرنسا بالغ النفوذ في المجلس . وانظر هناك ، ها هي الراقصة من الدرجة الثالثة وهي راقصة تدين بالبقاء للسلطان العظيم لاحدى الصحف : فلو لم يجدّد عقدها لواجهت الوزارة عدوّاً اضافيّاً .

ان فرقة الباليه هي في الأوبرا السلطة العظمى لذلك كان مفضّلاً جداً في الأوساط العليا للتأنق وللسياسة عقد صلات مع الرقص على عقدها مع الغناء . وفي المقاعد الامامية حيث يجلس زوّاد الاوبرا تعتبر هذه الكلمات : «هذا السيد من محبي الغناء» نوعاً من سخرية .

ومرّ رجل قصير عادي القسمات بسيط الهندام فأضاف بيكسيو .

واخيراً هذا النصف الثاني من دخل الاوبرا . انه المغني الصادح . لم يعد إمكان لنظم أو لموسيقى أو لعرض دون صادح شهير يبلغ صوته مقاماً نغمياً معيّناً . الصادح هو الحب ، هو الصوت الذي يمس القلب الذي يرن في النفس ، وقيمة هذا راتب أكبر جداً من راتب وزير، مائة ألف فرنك لحنجرة ، ومائة ألف فرنك لساقين ، تانك هما بلويا الأوبرا الماليتان .

قال غازونال : إني شده لكلّ مئات ألوف الفرنكات التي تتجوّل هنا .

ستُشْدَه أكثر جداً يا ابن خالتي العزيز ، إتبعنا . . . سنتناول باريس كما يتناول فنان معزفاً ونريك كيف يُعزَف عليه ، كيف اللهو في باريس .

وصرخ غازونال : انها صندوق عجائب محيطه سبعة أميال .

قال بيكسيو : قبل ان أرشد هذا السيد ، يجب أن اقابل «غايار» .

— لكن غايار يمكن أن يفيد ابن الخالة .

وسأل غازونال : وما هذه الآلة الاخرى ؟

— ليس آلة بل هو «آلاتي» . غايار صديق لنا انتهى بأن اصبح مديراً لصحيفة . وطبيعته ، وكذلك خزينة الجريدة ، ذاتا تحركات أشبه بالمدّ والجزر ، في وسع غايار ان يكسبك قضيتك .

— لقد خسرتها .

— إذن فهذا أوان كسبها .

وعند تيودور غايار القاطن في ذلك الحين في شارع «دومينار» دعا الخادم الاصدقاء الثلاثة الى الانتظار في غرفة استقبال صغيرة قائلاً ان السيّد في اجتماع مغلق ....

وسأله بيكسيو : مع من ؟

وردّت امرأة بريعة ظهرت في لباس صبيحة رائع :

— مع رجل يبيعه اعتقال مدين عصيّ على الإمساك .

قال بيكسيو : في هذه الحال يا عزيزتي سوزان بوسعنا أن ندخل نحن .

قال غازونال : أوه يا للمخلوقة الجميلة .

وأجابه ليون دولارا همساً في اذنه : انها مدام غايّار . انلك تعاين يا عزيزي المرأة الاكثر تواضعاً في باريس . كان لديها الجمهور واكتفت بزوج .

وقال المدير الدعب ، محاكياً «فريديريك لوميتر (١)» ، إذ رأى صديقيه : ماذا تريدان يا مولييّ .

انتهى تيودور غايار ، الذي كان فكهاً في القديم بأن أصبح بليداً لبقائه في الوسط ذاته وهي ظاهرة نفسية تُلاحظ في باريس . غدا ظُرفه الرئيسي عند ذاك ان يزيّن احاديثه بكلمات مستقاة من المسرحيات الرائجة ومنطوقة بالنبرة التي لفظها بها الممثلون الشهيرون .

وردّ ليون : جئنا «نهذر» .

— «ثانية ايها الشابّ ؟» (اودري في «البهلوانات») .

قال مخاطب غايار كخاتمة حديث : الخلاصة اننا سنقبض عليه بكل تأكيد .

فسأله غايّار : أواثق انت تماماً ايها الشيخ فرومنتو . لقد سبق احدى عشرة مرة أن أمسكناه في المساء وان اخطأته انت في الصباح .

— ماحيلتي ؟ اني لم ارقطّ مديناً كهذا . انه قاطرة ، ينام في باريس ويستيقظ في محافظة «سين — ايه — واز » . انه «قفل معقّد» — واذ شاهد ابتسامة على شفتي غايّار اضاف : هذا اصطلاح جار في «اختصاصنا» : «لقط رجل» ، «قفّل رجل(٢)» يعني توقيفه . في الشرطة القضائية يستعملون تعابير اخرى . كان «فيدوك(٣)» يقول لزبنه : «لقد قمنا بخدمتك» ، وهو أفكه ، لأنه كان يقصد المقصلة .

---

(١) فريديك لوميتر (١٨٠٠ — ١٨٧٦) ممثل فرنسي تألق في المسرحيات الرومنسية المأسوية وفي التمثيليات العاطفية المثيرة .

(٢) القفل serrure والكلمة من فعل serrer بمعنى « حصر » واستعملنا هنا « قفل » كما استعملنا « لقط » محل « قرص » لأن الملقط يسمى PinCe والفعل Pinrcer

(٣) فيدوك (١٧٧٥ — ١٨٥٧) مغامر فرنسي . كان في بدايته محكوماً بالأشغال الشاقة . وصار فيما بعد مديراً للأمن العام .

وإثر نكزة من كوع بيكسيو انعم غازونال النظر والسمع .

وسأل فرومنتو بلهجة مهدّدة وإنْ هادئة : هل السيد يرشو ؟

فأجاب المدير وهو يخرج من جيبه قطعة بخمسة فرنكات ويناولها فرومنتو : «الخلاف على خمسين سنتيماً » (أودري في «البهلوانات »)

وتابع الرجل : وأجر الأوباش ؟

فسأله غايّار : اي اوباش ؟

قال فرومنتو بهدوء : اولئك الذين استخدمهم .

فاستفهم بيكسيو : هل هناك من دونهم ؟

وردّ الجاسوس : نعم يا سيدي . هناك الذين يزودون بالمعلومات دون أن يدروا ودون ان يستوفوا ثمنها . اني اضع الاغبياء والمغفلين دون الأوباش .

وهتف ليون : غالباً ما يكون الأوباش صِباحاً ظرفاء .

وسأل غازونال وهو يحملق بفضول قلق الى ذلك الرجل القميء المعروق الرابط الجأش ذي هندام مُحضِر مبتدىء في الدرجة الثالثة : أنت إذن من الشرطة ؟

قال فرومنتو : اية شرطة تقصد .

— وهل هناك أكثر من شرطة واحدة ؟

وأجاب فرومنتو : هناك منها ما يصل الى خمس . الشرطة القضائية التي كان رئيسها فيدوك ، — والشرطة الرديفة التي يظل

رئيسها مجهولاً . والشرطة السياسية التي هي شرطة فوشيه(١) - ثم شرطة وزارة الخارجية وشرطة القصر (الامبراطور ، لويس الثامن عشر ، الخ ......(التي كانت تتخاصم مع الشرطة النظامية ، والتي آلت رئاستها اى السيد «دوكاز»(٢) كنت منتسباً الى شرطة لويس الثامن عشر . كنت في الشرطة منذ عام ١٧٩٣ مع ذلك المسكين كونتنسون(٣) .

ونظر ليون دولورا وبيكسيو وغازونال وغايّار الى بعض معبّرين عن ذات الفكرة : «كم من الناس تسبّب في قطع رؤوسهم ؟ » واستأنف ذلك الرجل الضئيل الذي غدا في لحظة رهيباً :

- الآن يريدون أن يتابعوا بدوننا ، إنها بلاهة . في مديرية الشرطة ، منذ عام ١٨٣٠ ، يريدون اناساً شرفاء . استقلت وانشأت لنفسي مصدر ربح بتوقيف المدنيين . . .

قال غايّار ، في اذن بيكسيو : انه الذراع اليمنى لمراقبي التجارة لكن لايمكن ابداً معرفة مَن من المدين أو من الدائن يدفع له اكثر . وقال فرومنتو بلهجة مصطنعة الرصانة : كلما تسفّل وضع المرء استلزم مزيداً من الأمانة أي للذي يدفع أكثر . تريد استرداد خمسين ألف فرنك وتُقتّر في وسائل العمل . اعطني خمسمائة فرنك وغداً يكون رجلك «مقبوضاً عليه» لأننا «حصرناه» أمس .

وصاح تيودور غايّار : خمسمائة فرنك ، لك وحدك ؟

---

(١) فوشيه (١٧٥٩ - ١٨٢٠) وزير الشرطة في عهد نابليون وكان داهية وقاسياً .

(٢) دوكاز وزير الداخلية في عهد لويس الثامن عشر - كونتنسون : شخصية ضابط شرطة ماهر ماكر تلعب دوراً في أكثر من رواية لبلزاك ، تتعلق بعهد الثورة وتميل غريزياً الى الإجرام .

فأجاب الجاسوس ببرود دون ان تتحرك عضلة في وجهه : «ليزيت ليس لديها وشاح» وأسمّيها ليزيت نقلاً عن «بيرانجيه»(١) .

فصرخ غازونال الورع : لديك «ليزيت» وتبقى في مهنتك هذه ؟

— إنها مسلّية جداً . مهما يشاد بصيد البرّ والبحر فان مطاردة الانسان في باريس امتع بما لايقاس .

وقال غازونال محدّثاً نفسه بصوت مرتفع : الواقع ان ذلك يحتاج الى مواهب عظيمة .

فردّ عليه فرومنتو الذي كفته لمحة خاطفة ليزن غازونال بكليته : لو عددت لك المزايا التي تجعل الرجل ماهراً «في مهنتنا» لظننتني اتكلّم عن عبقري . اليس يلزمنا حدّة بصر الوشق ؟

— الإقدام (الدخول كقنابل في المنازل ، الدنو من الناس كما لو أنّا نعرفهم ، التكليف بارتكاب دناءات مقبول دائماً الخ ....) — ذاكرة — فطنة — الإبتكار (ايجاد حيل متصوّرة بسرعة غير متماثلة ابداً ، ذلك ان التجسس يتلبّس طبائع وعادات كل شخص) إنه موهبة سماوية — واخيراً الخفة ، القوّة ، الخ .... جميع هذه الملكات ايها السادة مرسومة على باب مبنى «جيمناز — أموروس» على انها الفضيلة . يجب ان نملك كل ذلك تحت طائلة فقدان راتب المائة فرنك في الشهر الذي تدفعه لنا الحكومة أو إدارة الشرطة السرّية أو رقابة التجارة .

فقال له غازونال : وانت تبدو لي رجلاً فريداً .

---

(١) بيرانجيه (١٧٨٠ — ١٨٥٧) شاعر أغان ناقدة نال شعبية عظيمة لقصائده الوطنية والسياسية البديعة الإلهام .

ونظر فرومنتو الريفي دون أن يجيبه ، دون أن تظهر عليه امارة تأثّر وانصرف دون أن يحيي ّ أحداً . وكانت تلك لمحةً عبقرية .

قال ليون لغازونال : ها انت يا ابن الخالة شاهدت «الشرطة» مُتجسّدة .

فردّ الصناعي الطيّب ، فيما كان غايّار وبيكسيو يتحدثان بصوت منخفض : لقد جعلني اهضم طعامي .

قال غايّار بصوت عال وهو يعاود الجلوس الى مكتبه دون أن يرى أو يحيي غازونال سأعطيك الجواب هذا المساء عند «كارابين» .

وهتف الجنوبي عند عتبة الباب : انه وقح .

فقال ليون دولورا :ان لصحيفته اثنين وعشرين ألف مشترك . فهو أحد اكبر خمس سلطات اليوم وليس لديه الوقت في الصباح ليكون مهذّباً . . .

وقال ليون لبيكسيو : إذا كنا سنذهب الى المجلس النيابي لتدبير قضيته فلنأخذ الطريق الأطول .

وردّ بيكسيو ان الكلمات الصادرة عن الرجال العظماء مثل الملاعق من فضة مذهبة التي يزيل تذهيبها الاستعمال ، فلكثرة ماتُعاد تفقد كل روعتها . لكن اين سنذهب .

— هنا ، قريباً ، عند صانع قبعاتنا .

فصاح بيكسيو : مرحى ! اذا استمررنا على هذه الصورة ربما سيكون نهارنا مسلّياً .

وتوجّه ليون الى ابن خالته قائلاً : غازونال ؛ «سأجعله يتفخم» لأجلك . احتفظ بمظهر الجدّ كالملك على قطعة النقود من فئة خمسة فرنكات ، لأنك ستشاهد مجّاناً شخصاً مُفرط الغرابة ، رجلاً افقدته غطرسته عقله . اليوم يا عزيزي الكل يريد ان يُغمر بالمجد والكثير يُغمرون بالسخرية . ومن هنا الصور الممسوخة الحيّة الكلّية الجدّة....

فسأله غازونال : اذا بلغ كل الناس المجد فكيف يمكنهم التمايز ؟

واجابه بيكسيو : المجد ؟ هو أن يكون المرء غبيّاً . ان ابن خالتك حائز على وسام ، وأنا حسن الهندام ، والناس ينظرون اليّ أنا .....

وإثر تلك الملاحظة التي يمكن ان تفسّر لماذا لم يعد الخطباء وسواهم من عظماء السياسيين يضعون الشارة في عروة سترتهم في باريس(١) أقرأ ليون غازونال بحروف من ذهب اسم «فيتال» الشهير «خليفة فينو ، صانع قبعات» (وليس «قبعاتي» كما في الماضي) الذي تكسب اعلاناته الدعائية الصحف من المال بقدر ما يكسبها ثلاثة باعة اقراص ادوية أو سكاكر ، وفوق ذلك مؤلّف كتيّب صغير عن القبعة .

وقال بيكسيو لغازونال الذي كان يريه بدائع واجهة العرض الزجاجية ، يا عزيزي ، ان دخل فيتال اربعون الف فرنك في العام .

فصاح الجنوبي وقد كاد يكسر ذراع بيكسيو بانتفاضة عنيفة : وبقي مع ذلك بائع قبعات ؟

---

(١) لكل وسام شارة توضع على الصدر في عروة السترة وتختلف الشارة بين كل وسام ووسام وبين كل درجة واخرى في مراتب الوسام الواحد .

فجاوبه ليون : ستعاين الرجل . انت في حاجة الى قبعة وستحصل على واحدة مجّاناً .

وسأل بيكسيو الذي لم يبصر احداً في جناح البيع : أليس السيّد فيتال هنا .

وردّ عليه كاتب في الدرجة الأولى : ان السيد يصحح اشكاله الابتدائية في مكتبه .

قال ليون لابن خالته : هيه ، ياله من ابداع . . ثم وجّه خطابه الى الكاتب الاول . هل نستطيع التحدّث اليه دون ان نشوّش إلهاماته .

وهتف صوت : دعْ هؤلاء السادة يدخلون .

كان صوتاً وقوراً ، صوت رجل صالح ان يُنتخب صوتاً قوياً مُشبعاً نغماً .

وتكرم فيتال بالظهور بنفسه وكل لباسه من قماش اسود يزينه قميص ذو قبة منتفخة رائعة محلّى بماسة . ولمح الاصدقاء الثلاثة امرأة شابة جميلة جالسة الى المكتب تصنع تطريزاً .

وفيتال رجل بين الثلاثين والاربعين ذو بشاشة في الأصل مكبوتة تحت ضغط افكاره الطموحه . يتمتع بذلك القدّ الوسط ، نعمة البنى المتينة . بدين الى حدّ معتنٍ بشخصه ، ذو جبين منحسر لكنه يساعد في ذلك الصلع ليظهر كرجل أضناه التفكير . ويُلاحظ من طريقة نظر واستماع زوجته اليه أنها تؤمن بنبوغ زوجها وبذيوع صيته . ويحب فيتال الفنانين لا لأنه يتذوّق الفنون ، بل من باب الزمالة . ذلك انه يحسب نفسه فناناً ويشعر الناس بذلك بزعمه الانتفاء من هذا

الوصف التشريفي ، وبابتعاده الى مسافة هائلة في تصميم مستمر عن الفنون كيما يقال له : «انك رفعت القبعة الى مقام عِلْم» .

قال رسام الطبيعة : هل وجدت لي أخيراً قبعة ؟

فردّ فيتال : كيف يا سيدي ؟ في خمسة عشر يوماً ؟ ولك انت ؟ .. لكن هل يكفي شهران للعثور على الشكل الذي يناسب هيئتك ؟ أنظر هذه صورتك مطبوعة بالحجر . انها هنا . لقد درستك جيّداً . ما كنت لأبذل كل هذا الجهد في سبيل أمير . غير انك أكثر من ذلك : انك فنّان . وأنت تفهم قصدي يا سيدي العزيز .

قال له بيكسيو مقدِّماً غازونال : هذا أحد أعظم المخترعين ، رجل كان سيصبح في عظمة «جاكار»(١) لو رضي ان يعرض نفسه للشهرة . ان صديقنا ، الذي يصنع الجوخ ، قد اكتشف طريقة تركيب اللون النيلي في الألبسة الزرقاء القديمة . وقد رغب في رؤيتك باعتبارك ظاهرة كبيرة ذلك انك قلت : «القبعة هي الرجل» وهذه القولة سحرت هذا السيّد . آه يا فيتال انك صاحب عقيدة ، انك تؤمن بشيء معيّن ، انك تولع بإبداعك .

كاد فيتال يذهل عن الاستماع . كان قد شحب لونه من السرور . والتفت فجأة الى امرأته قائلاً انهضي يا زوجتي . .... هذا السيّد من أمراء العلم .

ونهضت مدام فيتال بإيماءة من زوجها . وحيّاها غازونال .

---

(١) جاكار (١٧٥٢ — ١٨٣٤) عامل فرنسي اخترع الة الحياكة المسماة باسمه

وعاد فيتال يقول في مجاملة مبتهجة مفرطة : هل أحظى بشرف قلنْسَتك(١) ؟

قال بيكسيو : بذات الثمن الذي تتقاضاه مني ؟ واضاف وهو ينظر الى بيكسيو باعتزاز .

— طبعاً ، اني لا أطلب كأتعاب سوى متعة ان تتمثلوا بي أحياناً أيها السادة : تلزم للسيد قبعة من نوع قبعة السيد «لوستو» . سأهتم بذلك.

قال غازونال لصناعي باريس : انك تجهد نفسك كثيراً .

— أوه ، في سبيل بضعة اشخاص فقط ، أولئك الذين يحسنون تقدير قيمة ابداعي . ففي الطبقة الارستقراطية ليس سوى رجل واحد فهم القبعة هو الأمير «دولبيتون» . كيف لايتنبّه الرجال ، كما تفعل النساء ، الى أن القبعة هي أول ما يلفت الانظار في اللباس ، ولا يفكرون في تبديل الطراز الحالي الذي اقول بصراحة إنه شنيع . غير ان الفرنسي ، بين جميع الشعوب ، هو الأكثر تشبّثاً بحماقة . إني اعرف الصعوبات جيّداً ايها السادة . لا أتكلم عن كتاباتي في الموضوع الذي أحسبني تناولته كفيلسوف ، بل كقبعاتّي فقط ، انا وحدي الذي اكتشفت وسائل الضغط على العمرة القبيحة التي تستحبها فرنسا الى ان انجح في إسقاطها .

واشار الى القبعة الكريهة المستعملة اذ ذاك وأضاف : ها هو العدّو ايها السادة . وقد عجب أحد ادبائنا من أن افطن شعوب الدنيا يرضى ان يضع على رأسه هذه القطعة من انبوب موقد . ها كم كل

(١) قلنس : ألبس القلنسوة ، وهي القبعة في مختلف أشكالها

التعديلات التي امكنني اجراؤها على تلك الخطوط السمجة — وعيّن «ابتكاراته» واحداً فواحداً . لكن مع اني أتقن ملاءمتها مع طبيعة كل شخص ، كما ترون ، فهذه قبعة طبيب ، وبقّال ، ومتأنّق ، وفنّان ، ورجل بدين ، ورجل نحيل ، فانها تظلّ كريهة الهيئة . انظروا ، تفهّموا فكرتي تماماً وجيداً ، وتناول قبعة قصيرة القدّ عريضة الرفراف :

— هذه القبعة السابقة لكلود فينيون ، الناقد الكبير ، الرجل الحرّ العيّاش ..... إنه التحق بالوزارة ، عيّنوه استاذاً ، امين مكتبة . لم يعد يعمل الا في صحيفة «ديبا» . سُمّي مقرّراً في مجلس الدولة . راتبه السنوي ستة عشر الف فرنك . يربح اربعة آلاف فرنك في صحيفته . انه حائز على وسام . ..... والآن ها هي قبعته الجديدة .

وعرض فيتال قبعة ذات قصة وشكل وسطين حقّاً . وصاح غازونال : كان عليك أن تصنع له قبعة مهرج(١) اجتماعي .

وقال ليون : انك رجل عبقري من الدرجة الأولى يا سيّد فيتال .

وانحنى فيتال دون أن يفطن للتورية(٢) .

وسأل غازونال: هل تتلطف باعلامي لماذا دكاكينكم هي آخر من تظل مفتوحة عند المساء في باريس ، حتى بعد محالّ القهوة والخمّارين. حقّاً ان هذا يثير استغرابي .

---

(١) المهرج : كلمة عامية لكنها تؤدي معنى ليس من كلمة تعبر عنه في الفصحى .

(٢) التورية : اضمار معنى غير الظاهر . وكلمة au Premier تعني من الدرجة الأولى كما تعني « على اول رأس »

— أوّلاً ، ان مخازننا أجمل في العين وهي مضاءة منها في نور النهار . ثم لأننا ، مقابل عشر قبعات تبيعها في النهار ، نبيع خمسين في الليل.

قال ليون : كل شيء عجيب في باريس .

وعاد فيتال يقول متابعاً تمدّحه : إذن ، على الرغم من جهودي ومن نجاحاتي ، لاغنى عن التحوّل الى الكمّة(١) وهذا ما اسعى اليه .

فسأله غازونال : وما العائق ؟

— الرخْص ايها السيد . أولاً ، يصنعون لك قبعات جميلة من حرير بخمسة عشر فرنكا ، الأمر الذي يقضي على تجارتنا إذ ما من أحد في باريس يدفع خمسة عشر فرنكاً في قبعة جديدة . واذا كانت قبعة القندس تكلف ثلاثين فرنكاً فقد تعقّدت المشكلة . وحين أقول « قندس » لم يعد يُشترى اكثر من عشرة ارطال وبر قندس في فرنسا فهذه المادة يساوي رطلها ثلاثمائة وخمسين فرنكا وتحتاج القبعة الواحدة الى اوقيّة . هذا الى أن قبعة القندس غير صالحة . فهذا الوبر لا يتشرّب جيّداً الصبغة ويحمرّ بعد عشر دقائق في الشمس كما ان القبعة يتشوه شكلها في الحرارة . وما نسميه «قندساً» هو في الحقيقة وبر أرنب بريّة أفضل الأنواع تصنع من ظهر الحيوان ، والثانية من جانبيه والثالثة من بطنه . اني ابوح لكم بسرّ المهنة لأنكم أناس مؤتمنون . لكن سواء عتمرنا حريراً أو أرنب ، خمسة عشر أو ثلاثين فرنكاً ، تظل المسألة عصّية على الحلّ . يجب دائماً دفع ثمن القبعة نقداً ولهذا تبقى القبعة

---

(١) الكمة : القلنسوة المدورة .

على ما هي . ان شرف فرنسا اللباسي سينقذ يوم تكلّف قبعات رمادية ذات كمّة مائة فرنك . سيسعنا عندئذ ، مثل الخياطين ، البيع بالدين . ولبلوغ هذه النتيجة تجب الموافقة على لبس الإبزيم والشريط الذهبي والريشة والقلبات من أطلس كما في عهد لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر . وفي تلك الحال تدخل تجارتنا مجال الابتكار فيتضاعف ربحها مرّات . وستغدو سوق العالم مُلك فرنسا كما بالنسبة الى ازياء النساء التي ستظل باريس ابداً تتحكّم بها ، بينما يمكن صنع قبعتنا الحالية في كل بلد . هناك عشرة ملايين سنوياً من المال الاجنبي يمكن ان يحصل عليها بلدنا في هذا الميدان ....

فقال له بيكسيو متصنّعاً الحماس : انها ثورة .

— نعم ، جذرية اذ يجب تغيير الشكل .

— قال ليون المولع دائماً بالجناس : انك سعيد على طريقة لوثر ، إنك تحلم «بالإصلاح»(١) .

— نعم يا سيّدي ، لو ان اثني عشر أو خمسة عشر رأسمالياً أو متأنّقاً من الذين هم القدوة يُقدمون على المغامرة لأربع وعشرين ساعة ، لكسبت فرنسا حرباً تجارية رائعة . إسمعوا ، اني اقولها لزوجتي : إني مستعدّ كي أنجح للتضحية بثروتي . نعم ، ان كلّ طموحي هو ان اجدّد هذا الشيء ثم اموت !

قال غازونال وهو خارج ، ان هذا الرجل هائل ، لكني أوكد لكم ان جميع شواذّكم فيهم طرف جنوبي(٢) .

---

(١) حين انتقد مارتن لوثر تصرفات حاشية البابا وحرمه هذا فانتقض عليه ودعا الى العودة الى النص الأنجيلي ، سمي مذهبه الجديد «الإصلاح» وما تزال هذه التسمية تطلق عليه الى الآن.

(٢) الشائع في فرنسا ان أهل الجنوب موصوفون بشطط الخيال وتفخيم الكلام .

قال بيكسيو مشيراً الى شارع «سان — مارك» : لنسلك هذا الاتجاه .

— هل سنشاهد شيئاً آخر ......

— ستشاهد مرابية الجرذان والسيّارات ، امرأة لديها من الاسرار الفظيعة بعدد ما ترى من ثياب نسائية معلّقة خلف زجاج خزائنها .

وأومأ الى احدى تلك الحوانيت التي يشوّه اهمالها منظر المخازن الحديثة الباهرة . كانت حانوتاً دُهنت واجهتها في عام ١٨٢٠ ، وتركها على الارجح افلاس لمالك البناية في حالة رديئة : فقد غاب اللون تحت طبقة مزدوجة أحدثها الاستعمال وكثّفها جدّاً الغبار . كانت النوافذ وسخة وكان مقبض الباب يدور من ذاته كما في كل الاماكن التي يُخرَج منها بأسرع مما يُدخَل اليها .

قال الرسّام في اذن غازونال وهو يريه خلف منضدة إمرأة رهيبة الشكل : ما قولك في هذه ، اليست ابنة عم ملاك الموت . ومع ذلك فانها تُدعى مدام «نوريسّون» (رضيع) .

وسألها صاحب المصنع الذي شاء مباراة الفنانّين في ظرف القريحة : سيدتي ، بكم هذه المخرّمة ؟

فاجابت ، لك انت الآتي من بعيد يا سيدي ستكفي ثلاثمائة فرنك فقط .

واذ لاحظت انتفاضاً مميزاً لأهل الجنوب اضافت بلهجة مؤكّدة : إنها من مخلفات الاميرة «دولامبال» المسكينة(١) .

---

(١) الأميرة دولا مبال (١٧٤٩ — ١٧٩٢) الصديقة الوفية للملكة ماري — انطوانيت اغتيلت خلال مذابح أيلول ١٧٩٢ .

فهتف بيكسيو : كيف ؟ على هذه المسافة القريبة من القصر(١) ؟

وردّت عليه : ايها السيّد ، «إنهم» لايؤمنون بذلك .

قال بيكسيو بشجاعة : سيدتي ، نحن لم نأت لنشتري .

قالت : هذا مالاحظته بوضوح يا سيدي .

قال رسام الكاريكاتور الشهير متابعاً : ان لدينا اشياء عديدة نريد بيعها اني اقطن في شارع ريشيليو ، في العمارة (١١٢) في الطابق السادس . فان تلطفت بالذهاب الى هناك بعد قليل فربمّا تعقدين صفقة رابحة جداً .

فسألت باسمة : قد يكون السيّد يرغب في بضعة أذرع من قماش موصلي لائق ؟

فأجاب ليون دولورا بلهجة رصينة : كلا ، بل يتعلق الامر بثوب زفاف .

وبعد ربع ساعة جاءت مدام نوريّسون فعلاً الى بيت بيكسيو الذي كان اصطحب ، لإنهاء تلك الدعابة ، ليون وغازونال ، وألفَتْهم مدام نوريسّون ساهمين كمؤلفين «لم يحظ تعاونهم بكل النجاح الذي يستحق» .

قال لها الخدّاع المقدام وهو يعرض عليها خفّين نسائيين : سيدتي هذان كانا للأمبراطورة جوزيفين ..

كان لابدّ له من الردّ على كذبتها حول الاميرة دولامبال .

(١) — القصر هو قصر « فرساي » و « هم » تعني الناهبين و «ذلك» تعني الأشباح.

قالت : هذان ، إنهما من صنع هذه السنة ، انظر هذه العلامة على النعل .

فأجاب ليون : الم تحذري ان هذين الخفّين مقدّمة ، مع انهما في العادة خاتمة رواية ؟

وعاد بيكسيو يقول مومئاً الى الجنوبي : ان صديقي هذا ، من أجل مصلحة عائلية عظيمة ، يود معرفة اذا كانت فتاة ، من اسرة كريمة غنيّة ، يرغب في الزواج منها ، قد اقترفت زلّة ؟

فسألت وقد رنت الى غازونال الذي لم يعد يُدهشه شيء : وكم سيدفع هذا السيّد ؟

قال الصناعي : مائة فرنك .

قالت : شكراً وكلّحت كما لا يستطيع فعله فرد .

فسألها بيكسيو الذي لفّ ذراعه حول خصرها : وكم تطلبين يا صغيرتي مدام نوريسّون ؟

— أولا ، يا سادتي الأعزاء ، منذ ان بدأت أعمل ، لم اجد قطّ احداً ، رجلاً أو امرأة يساوم على السعادة . ثم ، اسمعوا ، إنكم ثلاثة مزّاحين ... ورسمت ابتسامة على شفتيها الشاحبتين ودعمتها بنظرة بردّها احتراس هرّة . — واردفت : اذا لم يخص الامر سعادتك فهو يخصّ ثراءك . وعلى الارتفاع الذي انت ساكن فيه ، لايسوغ لك المساومة على بائنة .

ثم اضافت بلطف متكلّف : أخبروني الآن ، ما هو الشأن يا صغاري .

فقال بيكسيو وقد سرّه ان يعرف كيف يتصرّف حيال شخص يهمّه أمره : مؤسّسة بونييه وشركاه .

— أوه ، مقابل هذا يكفي عشرون فرنكاً

— وكيف ؟

— في حوزتي كل حلّي الأم . وتكون في حرج نحوي كل ثلاثة اشهر إذ تحار كيف تدفع لي فوائد ما أقرضتها هل تريد ان تتزوج من هذه الأسرة ايها المغفّل ؟ ..... أعطني اربعين فرنكاً وسأبوح لك بما يساوي اكثر من ثلاثمائة فرنك .

واراها غازونال قطعة من فئة اربعين فرنكاً وسردت مدام نوريسّون تفاصيل رهيبة حول الانحراف الخفي الذي ترتكبه بضع نسوة معتبرات «فاضلات» . وظهرت بائعة المرهونات ، وقد انشرحت للحديث ، على طبيعتها . ودون أن تكشف اسماً أوان تفضح سراً بعثت الرعشة في الفنانين باثباتها أن قلّة من السعادات في باريس لاتقوم على اساس الاستدانة المتقلقل . كان لديها ، في ادراجها جدّات غابرات واولاد احياء وازواج متوفّون وحفيدات ميتات ، تذكارات مؤطّرة بذهب وماس . كانت تطّلع على قصص مريعة وهي تستدرج زبنها للتحدث عن بعض ، وهي تنتزع منهم اسرارهم في ساعات الولع والخصام والغضب ، في تلك التوطئات التافهة التي يقتضيها الإقراض . وسألها غازونال : كيف انسقت الى ممارسة هذا العمل ؟

قالت بعفوية : لأجل ابني .

دائماً تقريباً تبرر بائعات الألبسة النسائية بالمفرّق تجارتهن بأسباب حافلة بالدوافع النبيلة ، زعمت مدام نوريسّون انها فقدت عدّة

خطّاب ، وثلاث بنات غويْن ، واجمالاً ، كل أوهامها . أبرزت كأقوى برهان عندها ، وصولات من مكتب الرهونات الحكومى لبيان كم تعاني تجارتها من أحوال سيئة . ادعت أنها ستكون في ضيق مادي عند الثلاثين من الشهر . قالت انها «تُسرق» كثيراً .

ونظر الفنانان الى بعض لدى سماع تلك الكلمة البالغه الصدع .

— اسمعوا يا أولادي . سأوضح لكم كيف «تُخدَع» . والامر لايتعلق بي بل بجارتي المقابلة لي ، مدام «ماهوشيه» ، صانعة الاحذية النسائية . كنت اقرضت احدى الكونتيسات ، امرأة مفرطة الرغبات نسبة الى دخلها . تجلس على اثاث فاخر في شقّة فخمة . تستقبل وتتغطرس للغاية . غدت مدينة بثلاثمائة فرنك لصانعة احذيتها واقامت أوّل امس مأدبة عشاء ، حفلة ساهرة . وعلمت الحذاءة ذلك من الطبّاخة فجاءت اليّ . وحمّسنا بعضاً . اردت إثارة فضيحة . قلت لها أنا : يا صغيرتي الأم ماهوشيه ما الذي ستجنين من هذا ؟ أن تحل بغضاؤك في نفسها . الأفضل هو الحصول على ضمانات «للنصابة نصّابة ونصف» ولا تتعرضين الى الغيظ ... وارادت أن تذهب اليها وطلبت مني دعمها وذهبنا .

— السيّدة غير موجودة — جواب متوقّع — واضافت الام ماهوشيه : سأنتظرها ولو مكثت حتى منتصف الليل . وعسكرنا في غرفة الانتظار واخذنا في الحديث . آه ، واذا بالأبواب تُفتَح وتُغلق وبخطوات مكتومة وباصوات مكمومة . أنا ، احزنني ذلك . الناس قادمون للعشاء . وتقدّرون المجرى الذي اتخذته القضية ارسلت

الكونتيّة وصفتها لموادعة الماهوشيه : «سيسدّد حسابك غداً» ... وما الى ذلك . لا جدوى .... ودخلت الكونتيسة في ثياب كثياب الأحد غرفة الطعام . وسمعتها ماهوشيه وفتحت وتقدمت اليها . والحق ، عندما رأت مائدة تتلألأ بالفضّيات (كانت الكوانين والقناديل ، كل شيء يبُرق كما في علبة حلّي) اندفعت كشهاب واطلقت صاروخها : حين ينفق أحد مال الآخرين يجب أن يتقشّف ، ان لايقيم مآدب عشاء . ان تكون الواحدة كونتيسة وان تكون مدينةبثلاثمائة فرنك لحذّاءة بائسة لها سبعة أطفال ... وبوسعكم أن تحزروا كل ما تفوّهت به ، تلك المرأة القليلة التهذيب . وردّاً على كلمة اعتذار منالكونتيسة (عدم وجود دراهم حاضرة) صاحت ماهوشيّ : هيه يا سيدتي ، هذه فضّيات ، إرهني اطباقك وسدّدي لي . فقالت الكونتيسةوهي تجمع ستة صحون وتضعها في يديها : خذيها بنفسك . وهبطنا السلالم .... يا له من نجاح ... كلا ، في الشارع دمعت عينا الماهوشيه ، فهي امرأة طيبّة ، واعادت الصحون معتذرة . لقد ادركت شقاء تلك الكونتيسة ، كانت الصحون من معدن خليط .

فقال ليون دولورا الذي كانت كثيراً ما تعاوده طبيعته الأولى «كميستيغري» : وبقيت بلا ضمان .

وردّت مدام نوريّسون التي أثارها ذلك الجناس(١) : آه يا سيدي العزيز ، أنت فنّان ، تؤلّف مسرحيات ، تسكن في شارع «هيلدير»، وصاحت «مدام انطونيا» ، ولك عادات غريبة أعرفها .... قل لي ،

---

(١) الجناس هنا هوان الصحون بالفرنسية : دي كوفير = des couverts » — وبلا ضمان : « ديكوفير = decouWert » ولفظ التعبيرين واحد .

أتريد التعرّف على نوادر من الطراز الرفيع ، كارابين أو موسكتون ، مالاغا أو جينّي كادين ......

فصاح ليون دولارا : مالاغا ، كارابين ، نحن اللذان صيّرناهما ما أصبحتا .

قال بيكسيو : أقسم لك يا عزيزتي مدام نوريّسون اننا اردنا فقط ان ننعم بالتعرف بك واننا نبتغي معلومات عن تجارتك السابقة وعن المنحدر الذي انزلقت اليه مهنتك .

قالت ، متّخذة وضع «دورين» (١) : كنت مديرة منزل أحد ماريشالات فرنسا ، هو الأمير «يزامبورغ» . وذات صباح جاءت احدى الكونتيسات الأرفع مقاماً في البلاط الامبراطوري ، تريد التحدث الى الماريشال ، سرّاً . أنا هيأت نفسي فوراً للتنصّت . اجهشت «امرأتي» بالبكاء وأسرّت ذلك الماريشال الغبّي : (تصوروا : الأمير ديزامبورغ ، بطل ابطال الجمهورية ، غبّي ! !) ان زوجها الذي كان يخدم في اسبانيا ، خلّفها بلا ورقة نقدية من فئة ألف فرنك ، وان أولادها ، اذا لم تحصل على ورقة أو ورقتين فوراً ، سيبقون بلا خبز . ليس لديها ما تأكل غداً . وسحب مارشالي الذي كان سخياً جدّاً في ذلك العهد ورقتي ألف من درج مكتبه . وراقبت تلك الكونتيسة الجميلة في السلّم دون أن تمكنها رؤيتي ، كانت تضحك بفرحة خالية من الامومة لدرجة اني تسللت الى تحت اعمدة المدخل وسمعتها تقول همساً لخادمها : «عند لوروا» . وبادرت الى هناك . دخلت

---

(٢) دورين : اسم جرى اعطاؤه لخادمة فتية صريحة في المسرحيات ومن اشهرها مسرحية « تارتوف » لموليير .

«ربّة أسرتي» عند ذلك التاجر الشهير ، في شارع ريشيليو واوصت لنفسها على ثوب بألف وخمسمائة فرنك ودفعت ثمنه — كان الثمن يُدفع حينذاك لدى التوصية — وبعد يومين غدا بوسعها الظهور في حفلة راقصة عند سفير ، لابسة كما ينبغي لامرأة تريدان تعجب معاً كل الناس وشخصاً بالذات. منذ ذلك اليوم قلت لنفسي : «أضحت لي مهنة . متى تجاوزت سن الشباب سأُقرض كبريات السيدات لأجل ثيابهن ، ذلك ان الولع لايحسب ، بل يدفع بلا تبيّن» — اذا كنتم ترغبون في مواضيع تمثيليات هزيلة خفيفة فعندي منها ما ابيعكم ايّاه....

وغادرت بعد ذلك السرد المسهب حيث تركت كل مرحلة من حياتها السابقة أثرها ، مخلّفة غازونال مرتاعاً بذات القدر من تلك المسارّة ومن خمسة اسنان صفراء اظهرتها وهي تحاول الافترار .

وسأل غازونال : وماذا سنصنع الآن ؟

قال بيكسيو الذي صفر مستدعياً بوابه : أوراقاً نقدية .... اني محتاج الى دراهم وسأُريك فائدة البوّابين . تظن ان مهمّتهم شدّ حبل الباب بينما يقومون في الواقع باسعاف الأفّاقين من أمثالي والفنانين الذين يضمونهم تحت جناحم . لذلك سيحصل بوابي ذات يوم على جائزة حسن الرعاية .

وفتح غازونال عينيه كالطاقة كي يفهم ذلك الكلام (١) .

ودخل فجأة رجل كهل فيه شبه من الحمار ومن ساعي المكتب

---

(١) هنا جناس من المؤلف نفسه فاسم « الطاقة » أو الكوة بالفرنسية : « عين الثور Oeil de bseub

لكنه اكثرزلقاً وملقاً دهنّي الشعر ضخم البطن شاحب البشرة نديّها كوجه رئيسة دير ينتعل مشّايه شبكية الوجه ويرتدي سترة من جوخ ازرق وبنطالاً رمادياً .

قال بلهجة مزيج تنّم على الرعاية والخضوع معاً : ماذا تريد يا سيدي ....

قال بيكسيو : رافينويه — والتفت قائلاً لغازونال : «اسمه رافينوييه» — هل تحمل مفكّرة استحقاقاتنا ؟

فأخرج رافينوييه من جيبه دفتراً كان الأشد دبقا الذي شاهده غازونال أبداً .

قال : سجّل عليه لثلاثة اشهر هذين السندين بقيمة خمسمائة فرنك لكل واحد اللذين ستوقعهما لي .

وقدّم بيكسيو كمبياليتين تجاريتين مهيأتين لأمره من قِبل رافينوييه وقعهما هذا على الفور وسجّلهما على الدفتر الذي تقيّد فيه زوجته ديون المستأجرين .

قال بيكسيو : شكراً يا رافينوييه . خذ . هذه بطاقة مقصورة في «المسرح الهزلي» .

قال رافينوييه وهو خارج : أوه ، ستتسلّى ابنتي كثيراً هذه الليلة .

قال بيكسيو : نحن هنا واحد وسبعون مستأجراً . ومتوسّط ما يدين به الفرد لرافينوييه ستة آلاف فرنك في الشهر ، أي ثمانية عشر الف فرنك لثلاثة اشهر ، في سلف وأجر ايصال رسائل ، عدا

اجرة الشقة . إن «العناية» ..... بفائدة ثلاثين في المائة نمنحه اياها دون أن يكون طلب قطّ شيئاً .....

فهتف غازونال : اوه ! باريس ! باريس ! ......

قال بيكسيو الذي فرغ من تظهير الكمبياليتين : ونحن ذاهبون ، ذلك اني آخذك ، يا ابن الخالة غازونال ، كي تتقابل اضافة الى من قابلت ممثلاً سيمثّل مجاناً مشهداً ظريفا .

قال غازونال : أين ؟

عند مُراب . ونحن في طريقنا سأروي لك بداية الصديق رافينوبيه في باريس .

ولدى مرور غازونال أمام حجرة البوّاب أبصر الآنسة لوسيين رافينوبيه حاملة بيدها دفتر طبقات نغم : كانت طالبة في المعهد الموسيقي . كان الأب يقرأ صحيفة وكانت الأم تحمل رسائل ستصعد لإيصالها الى المستأجرين .

قالت الصغيرة : شكراً يا سيد بيكسيو .

قال ليون لابن خالته : هذه ليست «جرذاً» انها يرقانة زيز(١)
قال غازونال : يبدو انه يُحصَل على صداقة «اللوج» ، كما على صداقة كلّ الناس ، «بالألواج»(٢) .

فصاح ليون وقد أطربه الجناس : هل يتثقّف في صحبتنا ؟

---

(١) تورية على انها بدل الرقص ستحترف الغناء .
(٢) ابقينا الكلمة الفرنسية توضيحاً للجناس . « فلوج » تعني حجرة كما تعني مقصورة في المسرح .

وعاد بيكسيو يقول : بعد أن صار الأصدقاء الثلاثة في الشارع اليك قصّة رافينوبيه : في عام ١٨٣١ كان ماسول ، «مستشارك» في مجلس الدولة ، محامياً — صحفياً أقلّ طموحه ان يغدو وزيراً للعدل ، وكان يتكرم بابقاء الملك لوي — فيليب على العرش ، لكن ينبغي عذره على طموحه ، فهو من «كاركاسون»(١) ذات صباح ، دخل عليه أحد «بلدياّته» وقال له : «انك تعرفني جيّداً ياسيّد ماسّول ، انا ابن جارك البقّال ، إني قادم من هناك إذ قالوا لنا ان بالمجيىء هنا ، يجد كل فرد وظيفة يُشغلها» ولدي سماع ماسّول تلك الكلمات اعترته رعشة وقال في نفسه انه ، اذا ارتكب خطأً مساعدة ذلك المواطن ، الذي كان يجهله كلّياً ، ستهبط عليه المحافظة بأكملها وانه سيخسر دقاّت جرس كثيرة وأحد عشر حبلا وطنافسه ، وان خادمه الوحيد سيتركه وانه سيقع في مشكلة مع المالك في ما يخصّ السلّم وان المستأجرين سيشتكون من رائحة الثوم وجوّ عربة النقل العامة المنتشرة في البناية . لذلك نظر الى الملتمس كما ينظر الجزّار الى خروف قبل ان يذبحه . لكن ، مع أن «البلديات» تلقّى تلك النظرة أو تلك الطعنة فقد تابع حديثه ، كما روى لنا ماسّول ، على هذا النحو : «لدي طموح مثل سواي ولا اريد العودة الى البلد الاّ غنيّاً ، هذا اذا عدت . فباريس هي مدخل الفردوس . يقال انك ، انت الذي تكتب في الصحف ، صاحب نفوذ وسلطة هنا ويكفيك ان تطلب لتحصل على اي شيء من الحكومة . لكن ، اذا كنت ذا مواهب ، كنحن جميعاً فليست لدي ثقافة ، واذا كانت لدي حيل فأنا لا اعرف الكتابة

---

(١) كار كاسون مدينة في الجنوب الغربي من فرنسا . والقصد ان جنوبي يحلم بالعظمة

وهذه مصيبة لأنه لدي أفكاراً . ولذلك لايخطر لي أن انافسك فأنا اعرف نفسي ولن انجح مطلقاً ، لكن ، بما انك قادر على كل شيء ، وبما أننا أخوين تقريباً لعبنا معاً في طفولتنا ، اعتمد عليك لتجد لي عملاً ابتدىء به ولترعاني ..... أوه ، يجب أن تفعل ذلك ، أريد وظيفة ، وظيفة تتلاءم مع إمكاناتي ، مع حالي ، حيث استطيع ان أُثري » وكان ماسول يهمّ بطرد «بلدياته» بخشونة مشيّعاً اياه ببعض الكلمات الفظّة عندما ختم «البلديات» حديثه قائلاً : لذا أنا لا أطلب الانتساب الى الادارة حيث يتقدّم المرء كالسلحفاة ، وقد ظلّ ابن عملك مراقباً متنقلاً طيلة عشرين سنة .... كلاّ اودّ فقط الابتداء ....» وسأله ماسول سعيداً بتلك النتيجة : «في المسرح» ؟ — «كلا ، صحيح اني حسن الحركة والوجه والذاكرة لكن في المسرح صعوبات بالغة . أود أن ابتدىء في مهلة .... البوابين» . واحتفظ ماسول بجدّيته وقال له : «ان فيها صعوبات اكثر جداً لكنك ، على الاقل ، سترى «الالواج» مزدحمة . وحصل له على ما سمّاه رافينوبيه «حبله الأول» .

قال ليون : انا أول من اهتّم بصنف «البوّابين» . هناك مزيفّو أخلاق ومشعوذو كبرياء ووشاة » حديثون و« مغتالون متوقّرون»(١) ومخترعو قضايا تفيض ماليّة يدعون الى تحرير الزنوج واصلاح صغار اللصوص والاحسان الى المجرمين المُفرج عنهم ، ويدعون بوّابيهم في حال اسوأ من حال الايرلنديين(٢) وفي محابس أردأ من

---

(١) الوشاة (في الفرنسية sycphantes) اسم يطلق في اليونان القديمة على من يبلغ عن سارقي التين (وكانت له مكافأة) و « المغتالون الأيلوليون » اسم من اشتركو في ايلول عام ١٧٩٢ في اقتحام السجون وتقتيل المساجين السياسيين (septembriseurs)

(٢) ظلت ايرلندا ثائرة على انكلترا منذ احتلالها لها في القرن الثاني عشر . وزاد من تباغض الشعبين ان ايرلندا بقيت كاثوليكية بينما انقلبت انكلترا انغليكانية . وكانت اخر انتفاضة لها (حتى عهد بلزاك) في عام ١٧٩٨ — وقد قمعت بقسوة بالغة

معازل المجانين ويعطونهم من المال ليعيشوا في العام أقل مما تخصص الدولة لسجين....ولمأقم بغيرعملخير واحد في عمريهو حجرةبوابي.

واضاف بيكسيو : لو أن رجلاً بني اقفاصاً كبيرة مقسّمة الى ألف مقطع كنخاريب خلية نحل أو كحاجز مجموعة وحوش ، مهيّأة لاحتواء مخلوقات من كل نوع حرفة ، لو ان ذلك الحيوان في صورة مالك جاء يستشير عالماً ويقول له : اريد شخصاً من ذوي اليدين يمكنه العيش في بؤرة مليئة بأحذية قديمة مُنتنة برائحة أسماك ، مساحتها عشرة اقدام مربّعة اريده ان يعيش فيها طول حياته ، ان ينام فيها ، أن يسعد فيها ، ان يُنجب فيها اولاداً حساناً كصغار الملائكة ، ان يعمل فيها ، ان يطبخ فيها ، ان يتنزه فيها ان يستنبت فيها الزهور ، ان يغني فيها وان لا يخرج منها ، ان لايُبصر فيها بوضوح وان يلحظ كل ما يجري خارجها ، فمن المؤكّد ان العالم ما كان ليستطيع اختراع البواب . ووجب ان تقوم بخلقه باريس ، أو قل إبليس .

قال غازونال : ان المهارة الباريسية توصلت الى أبعد من ذلك في مجال الاستحالات . فهناك العمّال ... إنكما لاتعرفان كلّ ما يتفّق عند الذهن الحاذق ، انتما اللذين تتحدثا عنه . أن قريحتنا تحارب قريحة القارّة الأوربية بركم المصائب كما كان نابليون يحارب أوربا بجمع الجيوش ....

قال بيكسيو : ها نحن عند صديقي «فوفينيه» المرابي . ان أحد اعظم الاخطاء التي يرتكبها مصور وأعرافنا هو تكرار مرجّلات(١)

---

(١) القماش « المرجل » : المطبوعة عليه صورة رجل .

قديمة . اليوم تجدّدت كل مهنة . فالبقالون اضحوا اعضاء في مجلس أعيان فرنسا والفنانون رأسماليين وصار مؤلفي الروايات الهزلية دخل . وان يكن أفراد ندرة ظلوا كما كانوا قبلاً فان المهن عموماً لم يعد لها زيّها الخاص ولا عاداتها السابقة . واذا عهدنا في الماضي أمثال غوبسيك وجيغونيه وشابواسّو وسامانون الجافين المتقشفين ، فان لديها الآن فوفينيه المرابي الدمث المتأنّق الذي يرتاد دهاليز المسارح ويعاشر المواجن والذي يتنزه في عربة فاخرة صغيرة منخفضة ذات جواد واحد . لاحظ جيّداً صاحبي يا صديقي غازونال وستشاهد هزلية المال ، الرجل الجامد الذي لايريد اعطاء شيء والرجل المضطرم الذي يخمن ربحاً . إسمعه على الاخصّ .

ودخل الثلاثة الطابق الثاني من بناية رائعة المظهر واقعة على شارع الايطاليين ووجدوا أنفسهم محاطين بكل الاناقات الرائجة ذلك الحين . وتقدّم شاب في نحو الثامنة والعشرين لملاقاتهم بوجه يكاد يكون ضاحكاً ، ذلك أن أول من شاهد كان ليون دولارا . وصافح فوفينيه بمودّة بالغة في الظاهر ، بيكسيو ، وحيّا ببرود غازونال وأدخلهم غرفة مكتب تستشف فيها كل اذواق خلف الإيهام الفنّي في الاثاث وعلى الرغم من التماثيل الصغيرة المستحب اقتناؤها آنذاك والتحف الكثيرة المنّوعة التي لاءمها مع شققنا الصغيرة الفن الحديث الذي غدا في مثل صغار عملائه . وكان فوفينيه مفرط التأنق في لباسه شأن الشباب من رجال الاعمال الذين يعتبر معظمهم ذلك نوعاً من إعلان دعائي .

قال بيكسيو ضاحكاً وهو يقدّم اليه سنديه : جئت ازودك بدراهم .

فتوقّر فوفينيه لدرجة حملت غازونال على الابتسام لشدّة ماصار من اختلاف بين الوجه الباشّ ووجه المرابي المجبر على دفع .

قال فوفينيه وهو ينظر الى بيكسيو : يا عزيزي كان يسعدني جداً أن اخدمك لكن لامال عندي الآن .

– آه ، عجباً .

– نعم ، اني اعطيت كل شيء ، أنت تعرف لمن ... ان لوستو المسكين ذاك تشارك على ادارة مسرح مع كاتب تمثيليات هزلية عتيق يحظى بعظيم الرعاية من قبل الوزارة ..... هو «ريدال» . وقد احتاجا الى ثلاثين ألف فرنك امس . فانا الآن مفلس ، مفلس الى حدّ اني سأرسل في طلب دراهم من «سيريزيه» كي أسدد ألفي فرنك خسرتها في المسير هذا الصباح عند «جينّي كادين» .

قال ليون دولارا : لابدّ من ان تكون مفلساً كلياً كيلا تخدم بيكسيو المسكين هذا ، لأنه فضّاح جدّاً عندما تلزّه الحاجة ....

فقاطعه بيكسيو : بيد أني لاأستطيع أن اقول غير الخير في فوفينيه ، فهو حشوه الطيبة .....

وردّ فوفينيه : يا عزيزي : سيستحيل عليّ ، حتى لو كان عندي مال ، ان اخصم لك ، ولو بفائدة خمسين في المائة ، أسناداً موقّعة من بوّابك .... ان توقيع ، رافينوييه ليس مرغوباً فيه ، إنه ليس على مستوى «روتشيلد» . اني انبهك الى أن هذه الاسناد اصبحت مكشوفة السرّ لدى الجميع ، وعليك اختراع مؤسسة اخرى . فتّش عن عمّ أو عن خال . ذلك أن الصديق الذي يوقع لنا أسناداً لم يعد له من وجود . فذهنية العصر الوضيعة تنتشر بتوسّع مريع .

قال بيكسيو مومئاً الى ابن خالة ليون : عندي هذا السيد ... احد أشهر صانعي اجواخنا في الجنوب واسمه غازونال .... واضاف وهو ينظر الى شعر البروفنسي الاشعث الكثيف : إنه رديء المَشط لكني سأذهب به الى ماريوس الذي سيزيل عنه مظهر الكلب الأوبر الذي شدّ ما يسيء الى اعتباره والى اعتبارنا .

فرد فوفينيه : اني لا أثق بأوراق الجنوب المالية ، ولا يجرحنْ قولي هذا السيّد .

وسعد غازونال بتلك الكلمة الى درجة انه لم يغضب من تلك الوقاحة .

فقد ظنّ غازونال ، كرجل بالغ الفطنة أن الرسام وبيكسيو يبغيان ، كي يعلّماه التعرف بباريس ، ان يجعلاه يدفع ألف فرنك ثمناً لغداء «مقهى باريس» لأن ابن اقليم «روسيّون» لم يكن تخلّى بعد عن ذلك الارتياب الذي يُحصّن في باريس ابن الريف .

واضاف فوفينيه : كيف تريدني ان تكون لي اعمال على مسافة مائتين وخمسين ميلاً من باريس ، في منطقة «بيرينيه» ؟

قال بيكسيو : انك ترفض اذن ....

قال المرابي الشاب : لديّ في بيتي عشرون فرنكاً .

فأجاب الطنّاز : هذا يؤسفني لأجلك . واضاف بجفاء : كنت احسبني اساوي ألف فرنك .

قال فوفينيه : انك تساوي مائة الف فرنك وأحياناً لاتقدّر بثمن ، لكني مفلس .

قال بيكسيو : إذن ، لأن الحديث في هذا الموضوع ..... كنت هيأت لك في هذا المساء عند «كارابين» افضل فرصة يمكن ان تتمنّاها ، لو تعلم ..

فطرف فوفينيه باحدى عينيه وهو يرنو الى بيكسيو ، كمثل ايماء وسطاء تجارة الخيل ابعض ان كفانا «تشاطر» .

وتابع بيكسيو كلامه : انك لم تعد تذكر انك لففت ذراعك على خصري ، تماماً كما تُلَمَفّ امرأة حلوة ، تلاطفني بالنظرة وبالحديث عندما كنت تقول لي «سأفعل كل شيء لك اذا استطعت أن تحصّل لي ، بالسعر الإسمي ، أسهماً في مشروع الخطّ الحديدي الذي تعهّده «دوتيين» ونوسنجن . اعلم يا صديقي ان « دوتييه » و«نوسنجن»سيذهبان عند كارابين التي ستستقبل هذا المساء عديداً من رجال السياسة . انك تضيع في هذا يا عزيزي فرصة مؤاتية . لابأس ، وداعاً ايّها النصاب .

ونهض بيكسيو تاركاً فوفينيه غير مبالٍ في الظاهر لكن مستاءً في الواقع كرجل تبيّن انه ارتكب حماقة .

قال المرابي : يا عزيزي ، انتظر لحظة ... اذا لم يكن لدي دراهم فلدي اعتماد . واذا كان سنداك لايساويان شيئاً فبوسعي ان احتفظ بهما وان اعطيك بدلاً عنهما سندين تجاريين .... هذا ويمكن أن نتّفق حول أسهم الخطّ الحديدي ، يمكن ان نتقاسم بنسبة معيّنة ارباح هذه العملية وعندئذ سأقوم بامهالك الى أن يمكن اقتطاع دينك من الارباح ......

فردّ بيكسيو ، لا ، لا ، اني احتاج الى دراهم ، يجب ان أجد من يقبل سندي رافينوبيه .....

وأردف فوفينيه : ثم ان رافينوبيه مليء . إنه يوظف ماله في صندوق التوفير ، انه ممتاز .....

فأضاف ليون : انه افضل ملاءة منك ، إنه لايرشو مواجن ولا يدفع ايجار منزل ولا يغامر في المضاربات خائفاً من صعود أو هبوط قيمة الأسهم .

أجاب فوفينيه الذي عاد هاشّاً ملاطفاً : اتحسب نفسك تتهكم ايها الرجل العظيم .... وخاصر بيكسيو مردفاً : لاعليك يا «شريكي العزيز» ، يلزمك دراهم ، اذن استطيع ان اقترض من صديقي «سيريزيه» ثلاثة آلاف فرنك بدلاً من ألفين . «ولتدم مودّتنا» ..... إعطني ورقتي «خسّتك» الكبيرة ، اذا كنت رددتك فلأن من القاسي جداً على رجل لايمكنه ان يمارس مهنته الصعبة إلا بتحويل اسناده الى المصرف الاحتفاظ برافينوبيك في درج مكتبه . ان ذلك قاسٍ ، قاسٍ جدّاً .

قال بيكسيو : وكم ستتقاضى كحسم .

فردّ فوفينيه : لاشيء تقريباً . سيكلفك ذلك ، لثلاثة أشهر ، خمسين فرنكاً فقط لاغير .

واجاب بيكسيو : كما كان يقول قديماً «إميل بلونديه» ، ستكون وليّ نعمتي .

قال غازونال في اذن بيكسيو : عشرون في المائة كفائدة محسومة مقدّماً ..... فأسكته بيكسيو بوكزة كوع قوية على صدره .

قال فوفينيه وهو يفتح درج مكتبه : عجباً ، اني ارى هنا يا صاحبي ورقة نقدية قديمة من فئة خمسمائة فرنك ملتصقة على جانب الدرج . ماكنت اظن نفسي على هذا القدر من الغنى لأن كنت أفتش لك عن سند باربعمائة وخمسين فرنك يستحق في نهاية الشهر القادم وسيقبله منك سيريزيه دون كبير حسم وهكذا يكون مبلغك قد كمل . لكن لامخادعة يا بيكسيو ؟ ..... هيه ، هذا المساء سأذهب الى بيت كارابين .... أتقسم لي .....

قال بيكسيو وهو يتناول الورقة النقدية والسند : الم نعد صديقين كما كنا . اتعهد لك بشرفي انك ستلتقي هذا المساء دوتييه وجمّاً من الناس الذين يرغبون في ركوب سكّتهم .... الحديدية عند كارابين .

وشيّع فوفينيه الاصدقاء الثلاثة حتى صحن السلم وهو يتملق بيكسيو . وحافظ بيكسيو على مظهره الجادّ الى ان بلغوا عتبة باب البناية ، كان يصغي الى غازونال وهو يحاول تنبيهه الى تلك العملية ويبرهن له انه ، اذا حسم شريك فوفينيه المدعو سيريزيه عشرين فرنكا من أصل اربعمائة وخمسين ، تصبح الفائدة اربعين في المائة .... وفي الشارع جمّد بيكسيو الدم في عروق غازونكال بضحكة الطنّاز الباريسي ، تلك الضحكة الفاترة الخرساء ، الأشبه بالإقترار .

قال له : ان تلزيم سكّة الحديد سيؤجّل بالتأكيد في المجلس النيابي ونحن نعلم ذلك منذ أمس من تلك «السيّارة» التي ابتسمت لنا .... واذا ربحت اليوم خمسة آلاف او ستّة آلاف فرنك في لعبة

«لانسكينيه» فما اهمية سبعين فرنكاً أخسرها كي احصل على ما «أقامر» به .....

وتابع ليون : ان «اللانسكينيه» هي ايضاً واحداً من الوجوه الألف لباريس في واقعها . لذلك يا ابن خالتي ، قررنا استصحابك عند دوقة في شارع سان — جورج حيث تشاهد الطبقة الرفيعة من المواجن وحيث يمكن ان تكسب قضيتك . لكن من المستحيل تقديمك بشعرك «البيريني» فانك اشبه بالقنفد وسنأخذك قريباً من هنا ، الى ساحة «البورصة» عند «ماريوس» ، ممثل آخر من ممثلينا ....

— ومن هو هذا الممثل الجديد ؟

فأجابه بيكسيو : اليك القصة الطريفة . في عام ١٨٠٠ جاء مزّين شاب متأجج الطموح من «تولوز» يُدعى «كابو» الى باريس و«أقام» فيها دكاناً .(اني استعمل لغتكم الاصطلاحية) ذلك العبقري (فهو يتمتع بدخل سنوي قدره اربعة وعشرون الف فرنك في ليبورن حيث اعتزل العمل). ادرك ان ذلك الاسم المبتذل الزريّ(١) لايمكن ابداً ان يبلغ الشهرة . وأطلق عليه السيد «دوباريني» الذي كان من زبُنه اسم «ماريوس»، الأرقى بما لا يقاس من اسمي «أرمان» و «هيبوليت» اللذين تختفي وراءهما أسماء عائلية مصابة بعلّة «كابو» . كلّ خلفاء كابو تسمّوا «ماريوس» وماريوس الحالي هو ماريوس الخامس ويُدعى «موجان» . وكذلك الشأن في مهن كثيرة ، مثل «ماء بوتو» وحبر «الخاصّة — الناعمة » . في باريس يغدوا الاسم ملكية تجارية

(١) كلمة : « كابو = Cabot » تعني في اللغة الفرنسية الدارجة « كلب »

وينتهي الى ان يشكل نوعاً من نبالة عنوان . وماريوس ، الذي له تلاميذ ، انشأ على ما يقول اول مدرسة حلاقة في العالم .

قال غازونال : سبق ان شاهدت وأنا أعبر فرنسا كثيراً من لافتات دكاكين تحمل هذه الكلمات : «فلان — تلميذ ماريوس» .

— فأجاب بيكسيو : وعلى هؤلاء التلاميذ غسل ايديهم بعد انجاز كل تجعيد ، لكن ماريوس لايقبلهم دون تمييز . اذ يجب ان يكونوا جميلي اليدين وان لايكونوا دميمين . وابرزهم كحسن نطق وكهيئة يُرسلون للقيام بالحلاقة في المدينة . وهم يعودون في غاية التعب . ولا ينتقل ماريوس الا للعناية بالنساء ذوات ألقاب النبالة . وعنده عربة خاصة وغلام .

فصاح غازونال في استنكار : لكنه مع ذلك لايزيد عن كونه «حلاقاً» .

وردّ عليه بيكسيو : حلاق ؟ إعلم أنه كابيتين في الحرس القومي وقد مُنح وساماً لأنه كان اول القافزين الى متراس في ثورة ١٨٣٢ .

وقال ليون وهم يصعدون سلماً ذا قضبان من كريستال ودرابزين من « أكاجو » يغطّي درجاته بساط فاخر : حذار أن يعثر لسانك . انه ليس حلاقاً ولا مزيّناً : انه مدير محلاّت قصّ وتمشيط وتصفيف شعر .

واردف بيكسيو : اياك أن تحرجنا . عند المدخل ستلاقي خدماً ينزعون عنك سترتك وقبعتك لتنظيفها بالفرشاة ويرافقونك حتى باب احدى غرف التزين ليفتحوه ويغلقوه . من المفيد أن أقول لك هذا يا صديقي غازونال .... واضاف ببعض تهكم : إذ ربمّا تصرخ : النجدة ، سارق !

قال ليون : هذه المحال ثلاث حجرات جمع فيها المدير كل ابتكارات البذخ الحديث . على النوافذ ستائر من اشرطة منفصلة ، وفي كل مكان مرايا ذات أصص وارائك وثيرة يمكن للمرء انتظار دورد عليها وهو يطالع الصحف حين تكون جميع مقاعد التزيين مشغولة. ولدى دخولك ، ربمّا تضع يدك على جيب صدرتك وتظن أنه سيُطلب منك خمسة فرنكات . لكن لن يُستخلص من كل نوع من جيب سوى نصف فرنك للتجعيد وفرنك واحد لترتيب شعر مع قصّه ، وهناك أجران انيقة لغسل الوجه تختلط مع المرايا ذات الأصص ، ينبع منها ماء من حنفيات . وفي كل مكان مرايا كبيرة تُظهر الصور . لذا لاتُبدِ دهشة . وعندما يجتاز «العميل» (وهذا هو الاسم الانيق الذي استبدله ماريوس بكلمة «زبون» الحقيرة) ، عندما يجتاز العميل العتبة يلقي عليه ماريوس نظرة ويقدره . انت بالنسبة اليه «رأس» قابل بدرجة أو بأخرى أن يشغله . فبالنسبة الى ماريوس ، لم يعد هناك من رجال ، لايوجد سوى «رؤوس» .

قال بيكسيو : سنُسمعك ماريوس في جميع طبقات سلّم أنغامه اذا عرفت محاكاة تصرفنا .

وما ان دخل غازونال حتّى قابله ماريوس بنظرة رضى وصاح : ريغولوس ، اليك هذا الرأس . شذّب اطرافه اولاً بالمقص الصغير .

وبايماءة من بيكسيو قال غازونال للتلميذ : عذراً ، اودّ أن يتولاني السيد ماريوس نفسه .

وأطرب ماريوس ذلك الطموح فتقدم تاركاً الرأس الذي كان يمسكه وقال : سأكون تحت تصرفك . أكاد انتهي . لاتقلق ، تلميذي سيهيؤك وانا وحدي سأقرر شكل القصّة .

كان ماريوس رجلاً صغير الحجم مجدوراً بشعر اجعد حالك السواد كامل لباسه اسود ، وقد خلع سترته وشكل في قبّته المنتفخة ماسة ، وتبيّن عند ذاك بيكسيو فحيّاه كسلْطة توازي سلطته .

وقال لليون مشيراً الى الرجل الذي كان يرتّب شعره . انه رأس عادي . رأس عطار . ماحيلتي ؟ لو اقتصرت على العمل الفنّي لمتّ في مشفى المجانين في «بيسيرت» . وعاد بحركة الى «عميله» بعد أن قال لريغولوس : إعتن بهذا السيد ، فهو طبعاً فنّان .

قال بيكسيو : صحفي .

لدى سماع تلك الكلمة أجرى ماريوس المشط مرتين في الرأس العادي وهجم على غازونال ممسكاً ذراع ريغولوس لحظة ما همّ باستعمال مقصّه الصغير .

سأتولى هذا السيد . وقال للعطار : انظر الى قفاك في المرآة الكبيرة اذا رضَيتْ المرأة ..... اوسّيان ؟ — ودخل الخادم واستولى على العميل

لالباسه . وقال ماريوس «المزبون» الدهش الذي كان يـَخرج كيس دراهمه : ستدفع عند الصندوق ايها السيد .

سأله بيكسيو : هل من المفيد حقاً يا عزيزي ان تعمد الى عملية المقصّ الصغير هذه ؟

فاجاب الحلاق الشهير : ما من رأس يصل اليّ الاّ منظّفاً لكن ، لأجلك سأقوم بكامل العملية على رأس هذا السيد . ان تلاميذي يمهدون ، إذ ما كنت لأتحمل الجهد . ان كلمة الناس جميعاً هي كلمتكم : «اريد ان يرتّب شعري ماريوس» . لا استطيع ان اقوم بغير اتمام المجهّز . ... في أي صحيفة يعمل السيّد ؟

قال غازونال : لو كنت مكانك لاتّخذت ثلاثة أو اربعة «ماريوس» .

قال ماريوس : آه ! ان السيد على ما ارى كاتب روايات مسلسلة. للأسف ، في الحلاقة ، حيث يجب ان يعمل المرء بنفسه هذا مستحيل... عذرك .

وغادر غازونال ليراقب ريغولوس الذي كان يعدُّ رأساً وصل حديثاً . واصدر صوت استنكار بلسانه وقال : ويحك ، هذا ليس مربّعاً بما يكفي . ان مقصك يُحدث فرضات .... انظر .... هكذا .... اسمع يا ريغولوس ، ليس المطلوب جزّ كلاب جُعد ... بل قص شعر رجال لهم شخصياتهم واذا استمررت في النظر الى السقف بدلاً من توزيع نظرك بين المرآة والوجه ، ستفسد سمعة «مؤسستي» .

— انت قاسٍ يا سيّد ماريوس .

– واجبي تعليمهم اسرار الفن .....

قال غازونال : إذن فصنعتك فنّ ؟

ونظر ماريوس مستنكراً الى غازونال في المرآة وتوقف وفي احدى يديه المشط وفي الثانية المقص وقال : سيدي انك تتحدّث عنها .... كطفل ، مع انك تبدو ، من لهجتك ، من أهل الجنوب ، بلاد العباقرة .

فأجاب غازونال : نعم ، أعرف انها تحتاج الى نوع من ذوق .

– اسكت ايها السيد . كنت اتوقّع منك ما هو خير من ذلك . أعني أن الحلاق ، ولا أقول الحلاق الماهر إذ يكون المرء حلاقاً أولا يكون حلاقاً ... ان الحلاق .... اندر وجوداً من .... ماذا تُراني أقول ؟ ... مِن .... لا أدري ماذا .... من وزير .... (إثبتْ في مكانك) .... كلا ، إذ لا يمكن الحكم في قيمة وزير .... الشوارع مليئة بوزراء .... من «باغانيني»(١) ... كلاّ هذا لايكفي ... ان الحلاق ايها السيد ، الرجل الذي يحزر روحك وعاداتك كيما يرتب شعرك على ما يلائم وجهك . . . يستلزم كلٍ ما يكون الفيلسوف . وماذا أقول عن النساء ... إسمع ، النساء يقدِّرننا ، يعرفن قيمتنا .... قيمتنا هي القلوب التي يُردنَ اسرها يوم يجئننا لنصفف شعرهن كيما يحرزن نصراً ... اعني ان الحلاق ... لا أحد يعرف كنهه . مثلاً ، أنا الذي احدّثك ، انا تقريباً ، بين جميع الحلاقين ... دون تمدّح ... الكلّ يعرفني .... مع ذلك كلاّ ، ارى انه يجب ان يُوجد أفضل ....

(١) باغانيني : موسيقي ايطالي – معاصر لبلزاك – لا يزال يعتبر الى اليوم أمهر عازف كمان .

التنفيذ ، ذلك هو الاساس . آه ! لو تُطلق النساء يدي ، لو امكنني تنفيذ كل ما يراودني من أفكار .... ذلك اني ، لو تعلم ، لدي مخيّلة جهنّمية .... لكن النساء لا يطاوعن ، لديهن خططهن . انهن يغرزن اصبعاً أو مشطاً في صروحنا الحلوة التي تستحق ان تنقش وتُجمع .... فأعمالنا يا سيدي لاتدوم غير بضع ساعات . ان الحلاق العظيم ، هيه ، يمكن اعتباره مثل «كاريم» و «فيستريس» في اختصاصهما ....(١) أدر رأسك هكذا من فضلك ، اني أصلح المقدّمة .... ان حرفتنا افسدها ممارسون رديؤون لايفهمون زمانهم ولا فنهم .... هناك باعة شعر مستعار أو عصارات لإنبات الشعر .... لايرون سوى قوارير يبيعونك اياها ... انها تجارة هؤلاء الأوغاد يقصّون الشعر أو يرتّبونه كما يتيسر لهم .... انا ، حين قدمت هنا من تولوز كنت اطمح الى أن أخلف ماريوس الكبير ، ان أصبح «ماريوس» حقيقياً ، ان أخلد الاسم ، انا وحدي ، بأكثر من الاربعة الآخرين . قلت لنفسي : النصر او الموت . (هكذا ، استقم ، سأُنهيك) انا الذي ، قبل الجميع عمدت الى الاناقة . جعلت غرفي موضع حبّ الاطلاع . انا اكره الإعلان ، وكلف الإعلان أصرفها يا سيدي في الترفيه ، في الإبهاج . العام القادم ، سيكون عندي في غرفة صغيرة رباعيّ ، سيعزف موسيقى ، ومن الأعذب . نعم ، يجب محو ملل الذين نرتّب شعرهم . أنا لاأخفي عن نفسي تضايق الزبن (انظر الى نفسك في المرآة) . ان الجلوس امام الحلاق مُتعب ، ربمّا بذات قدر «الوقوف» امام

---

(١) كاريم (١٧٨٤ — ١٨٣٣) طباخ افرنسي صاحب مؤلفات في فن الطبخ .
فيستريس (١٧٢٩ — ١٨٠٨) راقص من أصل ايطالي يلقب « إله الرقص »

الرسام . وقد يعلم السيّد ان السيد «دوهومبولدت» الشهير (وقد استطعت الاستفادة من الشعر القليل الذي تركته له اميركا . ان للعلم هذا الشبه مع «المتوحّش» ، في انه يسلخ جيداً جلدة رأس الانسان) (١) ، ان ذلك العالم الشهير قال إنه فوق عذاب الذهاب الى الشنق هناك عذاب الذهاب الى التصوير (٢) . فقصدي إذن يا سيدي ان يأتي الرجل ليرتب شعره عن استمتاع . (لديك خصلة غير مستوية يجب تمسيدها) ، كان عرض عليّ يهودي مغنيات ايطاليات يمكن في فواصل الاستراحة ان ينتفن الوبر الزائد في وجوه الشباب الذين في الأربعين . لكن تبدّى انهن فتيات من المعهد الموسيقي ومعلّمات «بيانو» من شارع مونمارتر ، ها قد ترتّب شعرك يا سيدي كما ينبغي لرجل ألمعي ... وقال لخادمه ذي البزّة الخاصّة : أوسّيان ، نظّف بالفرشاة ثياب السيد ورافقه الى خارج الغرفة . وأضاف في زهو وهو ينظر الى الاشخاص الجالسين : لمن الدور ؟

قال ليون لابن خالته عند بلوغهم اسفل السلّم حيث امكنت رؤية ساحة «البورصة» : لاتضحك يا غازونال ، اني اشاهد هناك أحد عظماء رجالنا وستسعك مقارنة حديثه مع حديث هذا الصناعي وتقول لي بعد سماعه اي الاثنين أعزب .

وقال بيكسيو مكرراً بتفكّه لهجة ليون : لاتضحك يا غازونال بماذا في رأيك يعمل ماريوس ؟ — بالحلاقة وترتيب الشعر .

---

(١) من طقوس الهنود الحمر في شمال اميريكا ان يسلخوا جلدة رأس عدوهم القتيل ويحتفظوا بها كتذكار نصر .

(٢) في القولة نوع من جناس : « شنق pendre = باندر (مفخم) » . « صور peindre = بندر مخفف) »

قال بيكسيو : انه احتكر بيع الشعر بالجملة شأن تاجر الخضار الفلاني الذي كان يبيعنا الصندوق بثلاثة فرنكات فحصر في نفسه بيع محصول الكمأة . وهو يحسم أسناد تجارته ويُقرض مقابل رهن زبنه المحتاجين الى دراهم ويوظّف مالاً في صندوق الدخل مدى الحياة ويضارب في سوق الأسهم المالية وله أنصبة في كل صحف الأزياء ، واخيراً ، يبيع باسم احد الصيادلة عقاراً رديئاً يؤمن له ثلاثين الف فرنك دخلاً سنوياً ويكلف مائة الف فرنك كإعلانات دعائية في العام .

فصاح غازونال : هل هذا ممكن ؟

قال بيكسيو بلهجة جادة : احفظ هذا : في باريس لا تجارة صغيرة كل شيء فيها يضخم ابتداء من بيع الخرق الى بيع علب الكبريت . ان بائع شراب الليمون الذي ينظر اليك تدخل دكانه وهو واضع فوطته تحت ابطه قد يكون دخله خمسين الف فرنك ، والندْل في مطعم ناخب قابل ان يُنتخب ورجل تظنه فقيراً وانت تراه يعبر الشارع ربما يحمل في جيب صدرته ماساً بقيمة مائة الف فرنك ليس مسروقاً ....

وسار الثلاثة المتلازمون ، طيلة النهار على الأقل ، بقيادة رسام الطبيعة ، بحيث صدموا رجلاً في نحو الاربعين ، يزين صدره وسام ، كان قادماً من السكّة الكبيرة في شارع «نوف — فيفييّن» .

قال ليون : هيه ، بماذا تحلم يا عزيزي « دوبورديو» ؟ هل بلوحة رمزية جميلة ؟ يا ابن خالتي العزيز يسعدني ان أقدّم لك رسامنا الشهير

دوبورديو ، الذي لايقّل شهرة بموهبته عنه بعقائده الانسانية ....
دوبورديو ، هذا ابن خالتي «بالافوكس» .

كان دوبورديو رجلاً ضئيلاً شاحب اللون ذا عينين زرقاوين تنمان على كأب ، وحيّا دون اكتراث غازونال الذي انحنى امام الرجل العبقري .

— إذن عيّنتم «ستيدمان» بدلاً من ....

فردّ رسام الطبيعة الكبير : لا ذنب لي في ذلك ، لم أكن حاضراً .

— انكم ستفقدون المجمع اعتباره ، كيف اخترتم رجلاً لهذا ، لا أريد ذكره بسوء لكنه حِرَفي .... الى اين يُسار برأس الفنون ، ذلك الذي اعماله هي الأدوم ، الذي يُظهر الامم بعد ان يكون العالم فقد كل شيء منها حتّى تذكارها ؟ الذي يكرس عظماء الرجال ؟ أن النحت سلك قدسي ، إنه يلخص مبادىء حقبته . ومع ذلك انتخبتم صانع شخوص وأطر مدافيء ، مزخرفاً ، أحد الذين باعوا الهيكل..... آه ، كما كان يقول «شامفور» : «يجب أن يبدأ الانسان بابتلاع أفعى كل صباح ، كيما يطيق الحياة في باريس» (١) .... وعلى كل حال ، يبقى لنا الفن ، ولا يستطيع احد منعنا من ممارسته .

قال بيكسيو : ثم يا عزيزي ، لك تعويض قليل من الفنانين من له مثله . المستقبل لك . حين سيهتدي العالم لمذهبنا ستكون على قمّة فنّك ذلك انك تحمّله افكاراً ستُفهَم .... عندما تُعمم ، بعد خمسين

---

(١) في الفرنسية تعبير « aualer des couleuvres = ابتلاع أحناش » للدلا لة على تحمل الا هانات وفي هذا الا ستشهاد « ابتلاع حيات » (والحية هي السامة والحنش غير سام)

سنة من الآن ستصبح في رأي جميع الناس ما أنت اليوم في رأينا فقط : رجلاً عظيماً . لكن يجب انتظار هذه المدّة .

قال الفنان الذي انفرجت اساريره كانسان ضرب على وتره الحساس ؟ لقد انهيت من قريب الصورة الرمزية «للوئام» واذا شئتم المجيء لرؤيتها ستدركون لماذا قضيت في رسمها سنتين . فيها كل شيء .. من أول نظرة تُلقى عليها يُحزر قَدَر الكرة الارضية . الملكة تحمل عصا الرعوية باحدى يديها ، رمز تنامي الأجناس المفيدة للانسان ، وهي معتمرة بقبعة الحرية . أثدائها ستة أزواج ، على الطريقة المصرية، لأن المصريين خمنوا مجييء «فورييه»(١) وقدماها مستقرتان على يدين مضمومتين تحيطان الكرة دلالة على أخوة الاجناس البشرية وهي تدوس مدافع مخربة كنايةً عن إلغاء الحرب . وحاولت جعلها تعبر عن سكينة الزراعة المنتصرة .... هذا وقد وضعت بجانبها «ملفوفة» هائلة الحجم هي حسب قول استاذنا صورة الوفاق ... أوه ، أن من اعظم مؤهلات فورييه للاجلال أنه ارجع الفكر للنباتات ، لقد وصل كل شيء في الخليقة بدلالة الاشياء بين بعضها ثم باغتها الخاصة . بعد مائة سنة سيغدو العالم أكبر جداً مما هو ....

فقال غازونال وقد أدهشه ان يسمع يتكلم هذا الشكل رجلاً ليس في مصح عقلي : وكيف يا سيدي سيحدث هذا ؟

---

(١) فورييه (١٧٧٢ – ١٨٣٧) فيلسوف واقتصادي فرنسي يقوم « نظامه » على انشاء مجمعات منسجمة التشكيل بغية تأمين الحياة الرغيدة لكل فرد فيها بواسطة العمل الطوعي .

قال : بالتوسّع في الانتاج . اذا قُبِل تطبيق «النظام» فلن يكون مستحيلاً التأثير في الكواكب .

وعاد غازونال يسأل : وماذا سيغدو الرسم آنذاك ؟

– سيغدو أكبر .

– وهل ستكون لنا عيون أكبر ؟ قالها غازونال وهو يرنو الى صديقيه بطرف لاغز .

– سيعود الانسان كما كان قبل انحطاطه . ورجالنا الطوال سيُعدّون عند ذاك اقزاماً .....

قال ليون : وأوحتك ، هل كملت ؟

قال دوبورديو : كملت تماماً . حاولت أن أقابل «هيكلا» كي يؤلّف سمفونية اودّ ، عندما يرى الناس هذه اللوحة ان يسمعوا موسيقى باسلوب «بيتهوفن» تشرح افكارها كي تضعها في متناول الأذهان بطريقتين . آه ، لو تقبل الحكومة ان تعيرني احدى ردهات «اللوفر» ....

– يمكنني التوسّط في ذلك اذا اردت ، اذ يجب ان لايهمل شيء في سبيل لفت الأذهان ....

– اوه ، ان اصدقائي يهيؤون مقالات ، لكني اخشى ان يذهبوا بعيداً في ..... فقال بيكسيو : إطمئن . انهم لن يذهبوا الى ابعد من المستقبل ....

ونظر دوبورديو شزراً الى بيكسيو وتابع طريقه .

قال غازونال : إنه حقّاً مجنون يقوده «مسار» القمر(١) .

قال ليون : ان لديه الصنعة والمعرفة ... لكن «الفوريرية» قتلته . لقد عاينت لتوك يا ابن خالتي آثار الطموح عند الفنانين . ما أكثر ما يعمد الفنانون في باريس ، بدافع الرغبة في الوصول بأسرع مما بالطريق الطبيعي الى تلك الشهرة التي يعتبرونها الثروة ، الى ركوب اجنحة الظرف ، يحسبون انهم يعظمون بالتطوع لخدمة شيء ، بالتبرع لدعم «نظام» ويأملون تحويل فئة الى جمهور . هذا جمهوري وذاك سان - سيموني وثالث ارستقراطي ورابع كاثوليكي وآخر معتدل وغيره قرن - اوسطي ، أو ألماني ، عن انحياز مقصود . لكن اذا كان الرأي لايمنح الموهبة فهو يُفسدها دائماً . والدليل الرجل المسكين الذي شاهدته الآن . ان رأي الفنان يجب أن يكون الصدق في الانتاج .. ووسيلته الوحيدة الى النجاح هي العمل حين تكون الطبيعة جنة الإلهام .

قال بيكسيو : لنهربْ . ان ليون يُلقي موعظة اخلاقية

وصاح غازونال وهو لايزال دهشاً : وهل كان ذلك الرجل سليم النيّة ؟

قال بيكسيو : سليم النيّة جداً . في مثل سلامة نية «ملك الحلاقين» قبل قليل .

قال غازونال : انه مجنون .

قال بيكسيو : وما هو بالوحيد الذي صيرته افكار فورييه الى الجنون . انك لا تعرف شيئاً عن باريس . أطلب فيها مائة الف فرنك

---

(١) كانت القرون الوسطى تؤمن بتأثير أطوار القمر على اطوار البشر (بل وعلى الحيوانات الضارية) . وبقي في اللغة تعبير « قمري lunatique » للدلالة على عدم «ركازة» العقل (كما نقول في العامية العربية : « هوائي »)

لتحقيق الفكرة لنفع الجنس البشري ، لمحاولة انشاء شيء كالآلة البخارية ، وستموت دونها ، كما مات صلوموم دوكو ، في «بيسيتر»(١) لكن اذا طلبتها لمشروع غير معقول فسيضحي الجميع لك بأنفسهم وبأموالهم . وهكذا ان شأن الانظمة هنا كشأن الأشياء . فالصحف السخيفة استهلكت ملايين منذ خمسة عشر عاماً . ان ما جعل قضيتك متعذرة الكسب هو انك مُحِقّ وان هناك ، حسب قولك ، اسباباً خفيّة لدى المحافظ .

قال ليون لابن خالته : هل تتصور ان يسع إنسان ، بعد أن خبر خُلُق باريس ، العيش في بلد سواها ؟

قال بيكسيو : ما رأيك في أن تأخذ غازونال عند «الأم فونتين»؟ سننقله بذلك من الواقعي الى الخرافي . واشار الى حوذيّ ان يتقدم بعربته وقال له : ايها الحوذي ، الى الشارع القديم الموصل الى حيّ «تامبل» .

ودرجت العربة بثلاثتهم في اتجاه منطقة «ماريه» .

سأل غازونال : ماذا ستُرياني ؟

قال ليون : البرهان على ما قال لك بيكسيو ، بجعلك تقابل امرأة تكسب عشرين الف فرنك سنوياً باستغلالها فكرة .

واضاف بيكسيو الذي أوّل تعبير وجه الجنوبي كاستفهام :

---

(١) صلومون دو كوس . (١٥٧٦ – ١٦٢٦) مهندس فرنسي . يمكن اعتباره المخترع الحقيقي للالة البخارية (١٦١٥) و « بيسيتر » : مدينة صغيرة قرب باريس أقيمت فيها دور للعجزة ومصحات عقلية .

قارئة فأل بالورق . ان مدام فونتين ، بين الذين يسعون الى التنبؤ بالمستقبل ، تعد أعلم مما كانت المتوفّاة من مدموازيل لونورمان .

صاح غازونال : فهي غنيّة جدّاً ولابد .

قال بيكسيو : لقد ظلت ضحية فكرتها طيلة وجود «اليانصيب» ذلك أنه لا إمكان في باريس لمدخول كبير دون مصروف كبير . . ان الرؤوس العنيدة تنصدع فيها كما تفتح صّماماً لأبخرتها . وكل الذين يربحون مالاً كثيراً لهم عيوب ونزوات ، على الأرجح لإقامة توازن .

وسأل غازونال : والآن وقد ألغي «اليانصيب» ؟ .....

ـ ان لها ابن أخ تجمع المال من أجله .

ولما وصل الاصدقاء الثلاثة شاهدوا في أحد أعتق البيوت في ذلك الشارع سلّما ذا درجات متخلخلة ، صفحها من طين خشن أوصلهم في النور الضعيف وفي رائحة النتن المميّزة المنازل ذات الممّرات ، الى الطابق الثالث عند باب في وسع الرسم وحده أن يمثّله لأن على الأدب ان يمضي الليالي الطوال كي يصفه بشكل ملائم .

وقامت عجوز ، متناسبة مع الباب ، وربما كانت الباب نفسه متحركاً ، بادخال الأصدقاء الثلاثة الى حجرة صغيرة مستعملة كغرفة انتظار حيث شعروا ، على الرغم من حرارة الجوّ في شوارع باريس ، بالقرّ الجليدي الذي في أعمق المغائر . كانت تأتيها نسمة رطبة من فناء داخلي يشبه «بادنجك» واسعاً(١) كان الضوء فيها كامداً وكانت

(١) البادنجك soupirail فتحة في اسفل جدار غرفة لتهويتها من الخارج .

على مُتكأ النافذة حديقة صغيرة حافلة بأنْبِتَةٍ سقيمة . في تلك الحجرة الملطّخة بمادة دبقة قاتمة كان كل شيء ، من كراسي ومنضدة ، زريّ المنظر . وكانت الارضية تنضح ككرازة . وجملة القول ، كان كل ما فيها منسجماً مع العجوز الشنيعة المعقوفة الأنف الشاحبة الوجه المرتدية أسمالاً لها بقيّة متانة ، التي تدعو ملتمسي الطالع الى الجلوس مُخبرة أيّاهم انهم لن يدخلوا الاّ واحداً فواحداً عند «السيّدة» .

وأقدم غازونال المتشجّع فدخل ووجد نفسه أمام احدى تلك النسوة اللائي غفل الموت عنهن ، أو تغافل عمداً ليترك بين الاحياء لصورته نسخاً . كانت وجهاً معروفاً تلمع فيه عينان رماديتان مُتعبتا السكون ، وأنفاً غائراً ملطّخاً بالتبغ ، وعُظَيْمات مُحكَمة العقد بما يشبه العضلات جيّداً . كانت ، بذريعة انها يدين ، تمزج الورق باسترخاء مثل آلة توشك أن تتوقف حركتها . كان الجسم ، النحيف كعصا مكنسة ، المغطّى بثوب سابغ يتمتع بمزايا «السواكن»(١) المصَّورة . لم تكن له خلجة . وعلى الجبين كانت تعلو عمرة من مخمل اسود . وكانت لمدام فونتين ، إذ هي امرأة حقيقية ، دجاجة سوداء على يمينها . وضفضعة بريّة ضخمة على يسارها اسمها «عشتروت» لم يبصرها غازونال في البداية .

لم تكن الضفضعة المدهشة الحجم تُخيف بذاتها قدر إخافتها بياقوتتين كبيرتين كقطعتي نقود ترسلان وميضي مصباح . كان

(١) السواكن nature-morte (أي الطبيعة الميتة) رسم كل فاقد للحياة من الحيوان والنبات (كالصيد والأزهار والفواكه المقطوفة) (والقصد هنا انه اشبه بالجثة لا حراك فيها)

مستحيلاً تحمّل نظرتهما . وكما قال المرحوم «لاسايّي» الذي اراد وهو متمدّد في حقل ان يغالب بنظره ضفضعة اسره طرفها ، ان الضفضعة كائن لم يُفسّر . ربما كانت الخليقة الحيوانية ، بما فيها الانسان ، ملخّصةً فيها ، اذ ان الضفضعة البرية ، في قول «لاسايي» تعيش أبداً .

وكان قفص الدجاجة السوداء على مسافة خطوتين من المنضدة المغطاة ببساط أخضر وتجيء اليها بواسطة لوح خشبي يعمل كجسر متّحرك بين القفص والمنضدة .

ولما قالت تلك المرأة الاقلّ حقيقية بين المخلوقات الآهل بها ذلك المنزل القذر لغازونال «إقطع» ..... أحسّ الصناعي الطيّب رعشة لا ارادية . ان ما يجعل تلك المخلوقات هائلة هو اهمّية ما نريد معرفته فالناس يأتون اليهن لشراء أمل وهنّ يعلمن ذلك جيّداً .

كان وقار المتكهنة اشد ظلمة من غرفة الانتظار ولم يكن يُميّز فيه لون الورق . كان السقف الذي سوّده الدخان ، بدلاً من أن يعكس النور الضئيل الذي تسرّبه النافذة المنسدّة بانبتة ماصحة عجفاء ، يمتصّ معظمه لكن ذلك النور الضئيل كان يضيء تمام المنضدة التي جلست اليها الساحرة . وتلك المنضدة ومقعد العجوز والمقعد الذي جلس عليه غازونال كانت كل أثاث تلك الغرفة الصغيرة المقسومة نصفين يشبه سقيفة تنام فيها على الارجح مدام فونتين . وسمع غازونال ، من باب صغير منفرج النشيش المميّز لقدر تغلي . وكان صوت الطبخ ذاك المرافق بروائح مختلطة تغلب فيها رائحة المجلى ، يمزج بشكل

سمج فكرة ضرورات الحياة الواقعية مع تصوّرات قذرة خارقة . كان التقزز في حبّ المعرفة . ولمح غازونال درجة من خشب أبيض هي الاخيرة ولاشك في السلم الموصل الى السقيفة . واستوعب كل تلك التفاصيل بنظرة واحد وعثت نفسه كان ذلك أرعب جداً من قصص الروائيين ومن مشاهد المأسويات الالمانية . كان ذا واقعية مذهلة كان الجوّ يبث ثقلاً مدوّخاً وكانت الظلمة تُهيج الأعصاب . ولما دفع غازونال نوع من غرور ، الى نظر الضفضعة شعر بحرارة ما يشبه المقّيء في قرارة معدته وقد تملكته رهبة كرهبة المجرم امام رجل الشرطة . وحاول التقّوي بفحص مدام فونتين لكنه لاقى عينين بيضاوين تقريباً لم يُطق سكون وبرود مقلتيهما . واصبح الصمت اذ ذاك مريعاً .

قالت مدام فونتين لغازونال : ماذا تريدايها السيّد ؟ «تبصيرة» خمسة الفرنكات أو تبصيرة عشرة الفرنكات أو «التبصيرة الكبرى» ؟

فأجاب الجنوبي الذي كان يبذل في داخله جهوداً هائلة كيلا يؤثر فيه الوسط المحيط به: ان تبصيرة خمسة الفرنكات هي ذاتها غالية بما يكفي. ولحظة ما كان غازونال يحاول تركيز انتباهه اذ بصوت جهنمي يجعله يهب في مقعده : كانت الدجاجة تُقرقر .

— اذهبي يا ابنتي ، اذهبي هذا السيّد لايريد ان ينفق غير خمسة فرنكات ، وبدت الدجاجة كأن فهمت صاحبتها إذ بعد ان وصلت الى مسافة خطوة من ورق اللعب عادت بوقار الى مكانها .

وسألت العجوز بصوت أبحته الافرازات المترددة صعوداً وهبوطاً في قصباتها : أيّ الزهور تُحب ؟

— الوردة

— اي الالوان تستحسن ؟

— الازرق

— أي الحيوانات تفضّل ؟

— الجواد — واستجوبها بدوره : لماذا هذه الاسئلة ؟

قالت لمن يقرر حِكْمة : ان الانسان يرتبط بكل الاشكال بحالاته السابقة . من هنا تأتي غرائزه ، وغرائزه تسيطر على مصيره . ما الذي تأكله بلذّة أكثر ؟ السمك أو الصيد أو الحبوب أو لحم الجزارة أو الحلاوات أو الخضار أو الفواكه ؟

— الصيد

— في أي شهر ولدت ؟

— في أيلول

— مدّ يدك .

وأنعمت مدام فونتين النظر جداً في خطوط الكف المبسوطة امامها . وجرى كل ذلك برزانة دون تبييت سحر وببساطة كاتب بالعدل يستخبر زبونه عن مقاصده قبل أن يحرر له عقده ، وبعد أن خلطت الاوراق بما يكفي رجت غازونال أن «يقطع» ويقسم الى رزم ثلاث . واسترجعت الرزم وبسطتها واحدة فوق الاخرى وفحصتها كما يفحص مقامر ارقام «الروليت» الستّة والثلاثين قبل أن يخاطر برهانه . وأحسّ غازونال البرد في عظامه ولم يعد يدري اين هو لكن عجبه اخذ يتنامى عندما راحت تلك العجوز المنفرة ذات القبعة الخضراء الدهنية المسطحة التي يكشف حتارها المزيّف عن اشرطة سوداء اغزر جداً من شعر

مجعّد في شكل علامات استفهام ، تسرد له بصوتها المشحون بالنحافة كل الخصوصيات ، حتى الأخفى ، في حياته السابقة وتروي له ميوله وعاداته وطبيعته ، وحتى افكار طفولته ، وكل ما أثر فيه وزواجه الذي لم يتم وممّن ولماذا والوصف الدقيق للمرأة التي أحبها ، وأخيراً من أي بلد جاء وما هي قضيته ، الخ .....

توهّم غازونال «مقلباً» هيّأه ابن خالته لكن سخف تلك المؤامرة تبيّن له فور أن خطرت في باله وظل شدهاً أمام تلك القدرة الجهنمية حقاً التي استعار تجسيدها من البشرية ما اعتبره منذ الأزل خيال الرسامين والشعراء الصورة الأشنع : عجوزاً قميئة دميمة ضيّقة النفس درداء شاحبة الشفتين فطساء الانف بيضاء العينين . كانت مقلة مدام فونتين قد تحركت وابرق فيها شعاع نابع من أعماق المستقبل أو من اعماق الجحيم . وسأل غازونال عفوياً ، مقاطعاً العجوز ، عن فائدة الضفضعة والدجاجة لها .

— كي استطيع التكهّن بالمستقبل . ان «المستشير» يرمي هو نفسه الحبّ على الورق دون تعيين . وتأتي «بينوش» لتنقره ، ويزحف «عشتروت» فوقه ليتناول الطعام الذي يمدّ به الزبون له يده . .. وهذان الفكران الرائعان لايخطئان أبداً . أتريد ان تراهما يعملان ؟ الاجرة مائة فرنك .

وبادر غازونال الذي افزعته نظرات «عشتروت» الى غرفة الانتظار بعدان حيّا مدام فونتين الرهيبة . كان يتصبّب عرقاً وكأنما حلّ فيه الشيطان .

قال للفنانين : لننصرف ..... هل استشرتما ابداً هذه الساحرة ؟

قال ليون : اني لا أفعل شيئاً هاماً دون الاستماع الى حديث «عشتروت» . وكنت دائماً سعيداً بذلك .

وقال بيكسيو : اني انتظر الثروة الشريفة التي وعدتني بها «بنيوش»

فصاح الجنوبي : لقد غدوت محموماً . لو اصدق ما قلتما لي سأومن اذن بالسحر وبالقدرة الخارقة .

وردّ بيكسيو : قد لاتكون الاّ طبيعية . ان ثلث بنات الهوى وربع رجال الدولة ونصف الفنانين يستشيرون مدام فونتين ، وهناك وزير معروف هي ملهمته .

وسأل ليون : هل كشفت لك المستقبل ؟

ــ كلا ، كان حسبي الماضي ، وأضاف غازونال وقد خطرت له فكرة : لكن ، اذا كانت تستطيع بمساعدة معاونتيها الكريهتين ، التنبؤ بالمستقبل فكيف امكن ان تخسر في اليانصيب ؟

فأجاب ليون : آه ، إنك تضع اصبعك على أحد أعظم أسرار العلوم الغيبية . . ما أن يتفشّى هذا النوع من مرآة باطنية حيث ينعكس للسحرة والساحرات المستقبل أو الماضي ، بنَفَس عاطفة شخصية ، أو بأي فكرة خارجة عن فعل القدرة التي يمارسونها ، لايعودون يبصرون شيئاً كما أن الفنّان الذي يشوب الفّن بترتيب سياسي أو منهجي يفقد موهبته . قبل حين كان رجل يتمتع بموهبة التنبؤ بواسطة الورق ، منافس لمدام فونتين ، ويقوم بممارسات اجرامية ، ولم يستطع «التغبير» لنفسه ورؤية ان سيقبض عليه ويحاكم ويدان في محكمة الجنايات . ومدام فونتين التي تكشف المستقبل ثماني مراّت من عشرة . لم تعرف ابداً انها ستفقد رهانها في اليانصيب :

وقال بيكسيو : كذلك الشأن في التنويم المغناطيسي اذ لايستطيع المرء تنويم نفسه .

فصرخ غازونال : يالله ، وهذا ايضاً «التنويم المغناطيسي» . آه ، ما هذا ، هل انت ملمّ بكلّ شيء ؟ .....

فاجابه بيكسيو بلهجة جادّة : ايها الصديق غازونال ، كي يضحك المرء من كل شيء يلزم أن يعرف كل شيء . أما أنا موجود في باريس منذ طفولتي ويكسب قلمي لي معاشي برسمه المضحكات ، بمعدّل خمسة رسوم ساخرة في الشهر .... وهكذا كثيراً ما أهزأ من فكرة أو من بها .

قال ليون : لننتقل الى ميادين أخرى . لنذهب الى «المجلس» حيث سنسوي مشكلة ابن الخالة .

قال بيكسيو ، محاكياً أودري وغايار : هذا من الفن الهزلي الرفيع لأننا «سننمذج» أوّل خطيب نصادفه في الممش وستتبين هناك كما في سائر الامكنة اللغة الباريسية التي ليس لها غير ايقاعين : المصلحة أو الغرور .

ولدى صعود ليون الى العربة أبصر في عربة صغيرة تمرّ بسرعة رجلاً أفهمه بايماءة يد انه يريد التحدث اليه .

قال ليون لبيكسيو : هذا «بوبليكولا ماسّون» سأطلب الاجتماع به هذا المساء في الساعة الخامسة ، بعد «المجلس» . وسيحظى ابن الخالة بمعرفة الأغرب بين جميع الشواذّ .

وبينما كان ليون يتكلم مع بوبليكولا ماسّون سأل غازونال : من هذا ؟

— اختصاصي بمعالجة الأقدام ومؤلّف دراسة عن اصول المشي ، يداوي لك ابنك(١) بطريق الاشتراك واذا انتصر الجمهوريون مدّة ستة اشهر سيصبح «خالداً»(٢) بالتأكيد

— فصاح غازونال : وفي عربة !

— ايها الصديق غازونال ، ليس الاّ اصحاب الملايين لديهم فسحة من الوقت للسير على اقدامهم في باريس .

وقال ليون المحوذي : الى «المجلس»

— أي «مجلس» يا سيدي .

فردّ ليون بعد أن تبادل ابتسامة مع بيكسيو : مجلس النواب .

فقال غازونال : ان باريس بدأت تحيرني .

— كيما نعرفك مداها الاخلاقي والسياسي والأدبي ، نحن نعمل الآن مثل «السيسيرون»(٣) الروماني الذي يريك في كنيسة القديس بطرس إبهام التمثال الذي حسبته طبيعي الحجم وتجده بطول قدم . إنك لم تقس بعد احدى اصابع قدم باريس ......

— ولاحظ يا ابن الخالة غازونال اننا نتناول ما نتلقى ، ولاننتقي .

— هذا المساء ، ستتعشى كما كان يُحتفل عند «بلتازار»(٣)

---

(١) الأبنة في القدم : ماتسميه العامة « المسمار » —

(٢) « الخالدون » لقب أعضاء المجمع الأدبي الفرنسي .

(٣) بلتازار : ملك بابل . انتصر عليه وقتله عام ٥٣٩ قبل الميلاد قورش ملك فارس واستولى على مملكته كان مشهوراً بالبذخ والقصف وتروي التوراة ان يداً خفية كتبت على جدران الردهة التي اقام فيها حفلته الأخيرة بينما كان قورش يحتل بابل بجيشه هذا التهديد النبوئي : « محسوب ، موزون ، مقسوم »

وستشاهد «باريسنا» نحن . التي نلعب فيها «اللانسكينيه»(١) ونخاطر بمائة الف فرنك مرة واحدة دون أن نكترث .

بعدربع ساعة توقفت العربة عند اسفل درجات المجلس النيابي في ذلك الجانب من جسر «الوفاق» المؤدي الى «الشقاق»(٢) .

قال الجنوبي وقد دهش أن ألقى نفسه وسط ردهة «الممشى»(٣) الكبيرة . كنت أظن «المجلس» لايقارب....(٤)

فرد بيكسيو : الامر نسبي : فمادياً يكلف ذلك ثلاثين فلساً اجرة عربة ، وسياسياً يصرف شيء ما إضافي . قال شاعر ان طيور السنونو حسبت ان قوس النصر في ساحة النجمة بني لها . ونحن الفنانين نعتقد ان هذا الصرح بُني ليعوض عن تفاهات المسرح ـ الفرنسي وليضحكنا لكن هؤلاء الممثلين يكلفون أغلى جداً ولا يسلوننا دائماً بما يوازي ما يقبضون .

ومضى غازونال يكرر : اذن فهذا هو المجلس ... وراح يذرع الردهة حيث كان في ذلك الحين نحو عشرة اشخاص ناظراً كل شيء بصورة كان يسجلها بيكسيو في ذاكرته كي يجعل منها أحد تلك الرسوم الساخرة الشهيرة التي كان ينافس بها «غافارني» .

---

(١) لعبة ورق المانية الأصل مأخوذ اسمها من لقب الجنود المرتزقة المأخوذ عن الوصف الكريم « خادم البلاد »

(١) هو في الفرنسية لعب بالألفاظ فكلمة ConCorde تعني الوفاق وكلمة disCorde تعني الشقاق .

(٢) ردهة الممشى (أو الخطى الضائعة parperdus) في دور القضاء : غرفة تتقدم غرفة المحاكمات .

(٣) كلمة inabordable تعني « عصي البلوغ » لكن تستعمل عادة بمعنى « باهظ الكلفة».ومن هنا تلاعب بيكسيو بالتأويل وكذلك بمعنى « صرف »و«انفق»مقابل depeuser

وذهب ليون ليتحدث مع أحد الحجاب المترددين باستمرار روحة وجيئة بين تلك الردهة وبين قاعة الجلسات التي تتصل بها بواسطة الدهليز حيث يتجمع مختزلو «الجريدة الرسمية» وبعض الاشخاص الملحقين بالمجلس .

كان الحاجب يجيب ليون حين دنا غازونال منهما : أمّا الوزير فموجود لكني لا أعلم اذا كان السيد جيرو لايزال هنا . سأذهب لأرى ....

وعندما فتح الحاجب أحد مصراعي الباب الذي لايدخل منه غير نواب ووزراء ومفوضو الملك ابصر غازونال يخرج منه رجل بدا له محتفظاً بشبابه مع أنه كان في الثامنة والأربعين ، دلّه الحاجب على ليون دولارا .

فصاح وهو يتوجه لمصافحة ليون وبيكسيو : آه ، انتما هنا ، ايها الماكران .... ماذا جئتما تصنعان في محراب القوانين ؟

قال بيكسيو : جئنا نتعلم «الهذر» فبدون ذلك سنصدأ .

قال الشاب دون أن يفطن الى أن غازونال بصحبتهما : إذن لنتقل الى الحديقة .

ولدى رؤية ذلك الغريب الحسن اللباس الاسود الثياب الذي لايتزيّن بأي وسام لم يعرف غازونال في أي صنف سياسي يضعه لكنه تبعه الى الحديقة الملاصقة الردهة والمحاذية الرصيف المسمّى قديماً «رصيف نابليون» . وما أن صار الشاب المذكور في الحديقة حتى انفجر عن ضحكة كان يكبتها منذ دخوله «ردهة «الممشى» .

فسأله ليون دولارا : ماذا بك ؟

– يا صديقي العزيز ، كي نستطيع اثبات صدق الحكومة الدستورية نحن مضطرون الى اقتراف أكاذيب مريعة بصفاقه عجيبة غير أني «يوماتي» . فاذا كنت في بعض الأيام أكذب كبرنامج هناك أيام لاأتمكن فيها من الاحتفاظ بالجدّ . وانا الآن في يوم ضحكي . وصادف أن رئيس الوزارة ، وقد طالبته المعارضة بكشف اسرار الدبلوماسية – التي كانت سترفض كشفها لو كانت «الوزارة» – يقوم الآن بتمارينه الخطابية على المنبر . وبما انه رجل شريف ولايكذب لحسابه الخاص ، قال لي في أذني قبل أن يباشر الهجوم : «لاأدري ماذا ألفق لهم ... ولما شاهدته على تلك الحال هاج بي الضحك فخرجت اذ لا يجوز الضحك في مقاعد الوزارة ، حيث يعاودني شبابي احياناً بشكل فجائي .

فهتف غازونال : اخيراً وجدت رجلاً شريفاً في باريس – وقال وهو ينظر الى الغريب ، انك ولاشك انسان فائق .

قال الشاب المذكور وهو يفحص غازونال : عجباً ، من هذا السيّد ؟

وردّ ليون بسرعة : انه ابن خالتي . وانا ضامن صمته وأمانته ضمانتي نفسي . انه هو الذي جاء بنا الى هنا فله قضية ادارية مرجعها وزارتك . هي ان محافظه يريد بكل بساطه ان يدمره وقد اتيا اليك كي تمنع مجلس الدولة من ارتكاب ظلم .....

– من المقرر ؟

– ماسّول

وأضاف ليون : حدث الثلاثة في الأمر وليأتوا هذا المساء عند كارابين حيث يقيم دوتييه حفله بحجّة «سكة حديد» ، ذلك ان السرقة استفحلت الآن جداً في «السكك»

وسأل الشاب وقد عاد الى الجدّ : لكن ذلك يجري في «البيرينية»؟

قال غازونال : نعم

وقال رجل الدولة وهو ينظر الى غازونال : لكنك لاتصوّت لنا

ــ كلاّ ، بيد انك بعد ماقلته امامي ، جعلتني انقلب ، وأعدك بشرفي كقائد في الحرس الوطني ان أنجح مرشّحك .

وسأل الشاب ليون : وهل تستطيع ان تضمن ابن خالتك مرّة أخرى ؟

قال بيكسيو بلهجة بالغة الفكاهة : اننا ندربه ....

قال ذلك الشخص الرفيع المقام وهو يغادر صديقيه ويعود مسرعاً الى قاعة الاجتماعات : حسناً ، سأبحث الموضوع .

وسأل غازونال : عجباً ، من هذا .

ــ انه الكونت دوراستينياك الوزير في القسم الذي فيه قضيتك .

ــ وزير .... أليس أكثر من هذا ؟

ــ غير انه صديق قديم لنا . انه يتمتع بثلاثمائة الف فرنك دخلاً سنوياً وهو عضو في مجلس اعيان فرنسا والملك انعم عليه بلقب كونت وهو صهر نوسنجن وهو أحد رجلين أو ثلاثة رجال دولة انجبتهم ثورة تموز . بيد أن السلطة تُضجره أحياناً فيأتي ليضحك معنا ....

وأمسك ليون ذراع غازونال وسأله : عجباً يا ابن خالتي ، انك لم تقل لنا انك من المعارضة هناك ؟ هل انت غبي ؟ إن يزيد

أو ينقص نائب في اليسار أو في اليمين ، هل يؤثر هذا في وضعك ؟

— نحن مع الآخرين .

قال بيكسيو بذات اللهجة الفكهة : تَخَلَّ عنهم ، ان لهم «العنايه السماوية» وستسرقهم بدونك وبرغمهم .... على الصناعي أن يكون قَدَرِيّاً .

وهتف ليون : حسناً ، ها هو مكسيم مع كاناليس وجيرو .

فقال بيكسيو : يقال يا غازونال ان الممثلين الذين وعدناك بهم وصلوا خشبة المسرح .

وتقدم الثلاثة نحو الشخصيات المذكورين الذين بدوا عاطلين عن العمل .

وقال بيكسيو لجيرو : هل طردوكم حتى تسكعتم هكذا ؟

وأجاب جيرو : كلا ، بينما يجري الاقتراع بالتصويت السري خرجنا للتنفّس .

— وكيف تخلّص رئيس الوزارة من ورطته ؟

قال جيرو : كان رائعاً .

وكرّر كاناليس : رائعاً

وقال مكسيم : رائعاً .

— ما أغرب أن يُجمع اليمين والوسط واليسار على رأي واحد .

قال مكسيم دوترايّ : بل إن آراءنا مختلفة

(وكان مكسيم دوترايّ نائب وزير) .

وايّده كاناليس ضاحكاً : نعم .

ومع انه سبق لكاناليس أن كان وزيراً فقد انضم اذ ذاك الى اليمين .

وقال مكسيم لكاناليس : انك احرزت قبل قليل نصراً مبيناً فانت الذي اضطررت الوزير الى اعتلاء المنبر .

وردّ كاناليس : والى الكذبه كمشعوذ .

فاجابه جيرو الشريف : يا له من نصر تافه . لو كنت مكانه ماذا كنت ستفعل ؟

— كنت سأكذب .

قال مكسيم دوتراي : هذا لا يسمّى كذباً هذا يسمّى تغطية التاج

وانتحى بكاناليس على بعد خطوات .

قال ليون لجيرو وهو يشير الى كاناليس : إنه خطيب بليغ جدّاً .

فرد مستشار الدولة : نعم ولا . إنه فارغ ، انه رنّان ، فهو اقرب الى فنّان كلام منه الى خطيب ، انه اجمالاً آلة جهيرة لكنه ليس الموسيقى . لذلك لن يحظى أبداً «بأذن المجلس» انه يحسب نفسه ضرورياً لفرنسا لكنه لن يسعه في أي حال أن «يكون رجل الظرف» .

كان مكسيم وكاناليس قد عادا نحو الجمع عندما كان جيرو ، نائب وسط اليسار ينطق ذلك الحكم . وأمسك مكسيم بذراع جيرو وسار به بعيداً عن الجمع ربمّا ليسارّه بذات ما سارّبه كاناليس .

قال ليون لكارا ليس مومئاً الى جيرو : يا له من رجل فاضل شريف .

فأجاب كاناليس : إنه من تلك النزاهات التي تقتل الحكومات

— هل هو خطيب جيّد في رأيك ؟

وردّ كاناليس : نعم ولا . فهو مسهب وغامض . انه صانع متخصص بالحجج ، يحسن صياغة المنطق لكنه لايفهم المنطق الأكبر ، منطق الاحداث والاعمال لذلك لم يحظ ولن يحظى ابداً «بأذن المجلس»

ولحظة ما كان كاناليس يطلق ذلك الحكم على جيرو عاد هذا مع مكسيم نحو الجمع . وفي سهو عن وجود أجنبي غير مضمون الكتمان مثل ليون وبيكسيو امسك بيد كاناليس بحركة معبّرة ، وقال له : اني موافق على ما يقترح السيّد الكونت دوتراي وسأقوم باستجوابكم لكن بقساوة شديدة .

– اذن سيكون المجلس معنا في هذه المسألة ذلك ان رجلاً في مثل تأثيرك وفي مثل بلاغتك «يحظى دائماً بأذن المجلس» . وسأرد عليك ، وبحدّة ، بحيث اسحقك .

– سيمكنك تقرير تبديل الوزارة إذ ستصنع في هذا المجال كل ما تشاء بالمجلس «وستغدو رجل الموقف» .....

قال ليون لابن خالته : ان مكسيم خدعهما هما الاثنين . ان هذا الفتى يجد نفسه في دسائس المجلس كسمكة في الماء .

وسأل غازونال : ومن هو ؟

فأجاب بيكسيو : وغا سابق في سبيل أن يصبح سفيراً .

قال ليون لمستشار الدولة : جيرو ، لاتنصرف قبل ان تسأل راستينياك عن ما وعدني ان يحدثك فيه حول قضية ستنظر فيها بعد غد وتخص ابن خالتي هذا ، وسأذهب لمقابلتك لأجل هذا الموضوع غداً في الصباح .

وتبع الاصدقاء الثلاثة الشخصيات الثلاثة على مسافة وهم يتوجهون الى ردهة الممشى .

وقال ليون لغازونال وهو يشير الى وزير سابق فائق الشهرة والى رئيس تكتل وسط اليسار هذان خطيبان يحظيان بأذن المجلس ، وقد لُقّبا عن رعب وزيرين في قسم المعارضة . وهما مستوليان على اذن المجلس لدرجة انهما كثيراً ما يشدّانها له .

قال بيكسيو : الساعة الرابعة الآن ، لنعُد الى شارع برلين .

قال ليون : أجل . والتفت الى غازونال : لقد شاهدت لتّوك قلب الحكومة . بقي ان نُريك «دودتها الوحيدة» ، أعني «الجمهوري» .

وما أن تعبّأ الاصدقاء الثلاثة في عربتهم حتى نظر غازونال بتهكّم الى ابن خالته وبيكسيو كرجل يريد نفث فيض من غيظ خطابي وجنوبي :

— كنت ارتاب في هذه المدينة الكبيرة الفاجرة ، لكني منذ هذا الصباح احتقرها ، ان الأرياف مسكينة متواضعة شريفة اما باريس فعاهرة جشعة كذوب مرائية وانا سعيد جداً ان سلمت منها بجلدي .

قال بيكسيو بوقار مصطنع وهو يغمز ليون : ان النهار لم ينته بعد .

قال ليون : ولماذا تشكو بغباء من عهر مزعوم ستدين له بكسب قضيتك ؟ ... أتحسب نفسك اكثر عفّة منا وأقل رثاء واقل جشعاً وأعصى على الانزلاق في منحدر ما واقلّ غروراً من جميع الذين تلاعبنا بهم كما بدُمى .

— حاولا أن تثلماني .....

قال ليون وهو يهزّ كتفيه : يا لك من مسكين ، ألم تعد راستينياك قبل هنيهة بنفوذك الانتخابي ؟

ـ نعم لأنه الوحيد الذي اخذ يضحك من نفسه .

قال بيكسيو : مسكين أنت . فأنت تتحداني ، أنا الذي لم أفعل غير الضحك .... انك تشبه كلباً صغيراً يستثير نمراً ..... آه لو كنت رأيتنا نسخر من شخص .... أتعلم اننا نستطيع إجنان رجل بكامل عقله ؟ . . . .

وأوصل ذلك الحديث غازونال الى بيت ابن خالته حيث شدهته رؤية الأثاث الفاخر وأنهت المناقشة . وانتبه الجنوبي ، لكن بعد حين ، ان بيكسيو قد جعله «يتعاظم» .

وفي الساعة الخامسة والنصف ، عندما كان ليون دولورا يتزوق للسهرة ، لعظيم دهشة غازونال الذي كان يُحصي العديد من كماليات ابن خالته والذي كان مأخوذاً بجدّية الخادم في تأدية عمله ! أُعلن قدوم «معالج أقدام السيّد» (١) . ودخل بوبليكولا ماسون ، وكان رجلاً قصيراً في الخمسين يُذكّر وجهه بوجه «مارا»(٢) ووضع صندوق ادوات صغير وهو يجلس على كرسي صغير قبالة ليون ، بعد أن حيّا غازونال وبيكسيو .

سأله ليون وهو يسلّمه احدى قدميه التي كان غسلها الخادم : كيف تجري الأمور ؟

---

(١) « للسيد » طبعاً قدمان و « معالج أقدام » صفة تخصيص مثل « طبيب أطفال »

(٢) مارا ١٧٤٣ — ١٧٩٣ أحد رجال الثورة الفرنسية ومن مدبري مذبحة « ايلول » (التي سبق ذكرها) اغتالته « شارلوت كوردي » وهو في حمامه . كان وجهه يوصف « بوجه إجرام » .

قال : اني مضطر الى ان أضمّ الّتي تلميذين ، شابين يئسا من مواتاة الحظ فتخليا عن الجراحة الى معالجة الأقدام . كانا يتضوران جوعاً ومع ذلك فهما موهوبان .....

– أوه ، اني لا اسألك عن امور الأقدام بل اسألك اين وصلتم في أموركم السياسية .

ورمى ماسيّون غازونال بنظرة ابلغ من كل استفهام .

فقال ليون : اوه ، تكلّم ، انه ابن خالتي ويكاد يكون من حزبكم اذ يظن نفسه «بوربونيّاً»(١)

– إذن ، نحن نتقدم . نحن نسير . بعد خمس سنوات من الآن ستكون أوربا لنا .... ان سويسرا وايطاليا محركتان بنشاط ومتى جاء الظرف المواتي نحن جاهزون . هنا لدينا خمسون الف رجل مسلّح عدا المائتي ألف مواطن الذين لايملكون فلساً .....

قال ليون : عجباً ! والتحصينات ؟

وردّ ماسّون : سنبوسكات سنلتهمها . أولاً ، لن ندع المدافع تصل . ثم لدينا آلة صغيرة أقوى من كل حصون العالم ، آلة إخترعها الطبيب الذي شفى من الناس أكثر مما كان يقتل جميع الاطبّاء إبّان عملها(٢) .

---

(١) كانت اسرة « بوربون » هي الفرع الملكي الأول المتولي عرش فرنسا . وفي عام ١٨٣٠ قامت ثورة اضطرت شارل العاشر الى التنازل عن العرش فنصب ابن عمه « لوي – فيليب » من الفرع الملكي الثاني – اورليان . ملكاً ....

(٢) الطبيب هو « غيوتان » وكان اخترع المقصلة التي سميت باسمه : « غيوتين » . وعرضت على الملك لويس السادس عشر وكان هاوي حدادة فاقترح بعض تعديلات فيها حتى أخذت شكلها النهائي . واستعملت لأول مرة في فرنسا في عام ١٧٩٢ (٢٥ نيسان) وأعدم بها الملك في ٢١ كانون الثاني ١٧٩٣ .

قال غازونال الذي أرعده مظهر بوبليكولا : ما اشدّ ما تقسو ....

— ان هذا واجب. اننا نأتي بعد روبسبير، وسان — جوست(١) وعلينا أن نفوقهما قسوة . لقد كانا خوّارين وها انت ترى ما لقينا : الامبراطور ، فرع الملكية الأول ، فرع الملكية الثاني . ان «الجبليين» لم يُشذّبوا بما يكفي الشجرة الاجتماعية(٢) .

قال بيكسيو : اسمع : بما انك ستصبح على ما يقال قنصلاً أو عضواً في لجنة التشريع تذكّر جيداً أني كنت طلبت حمايتك منذ اثنتي عشرة سنة .

— لن يحدث لك شيء . سوف نحتاج الى مضحكين وسيمكنك تولّي وظيفة «باربر» .

قال ليون : وأنا ؟

— آه — أنت زبوني وهذا ما سينقذك . ذلك ان العبقرية امتياز بغيض يلقى تقديراً مفرطاً في فرنسا وسنضطر الى القضاء على بعض من رجالنا العظام كي نعلّم الآخرين ان يكونوا مجرد مواطنين ....

وكان «المعالج» يتكلّم بلهجة بين الجدّ والهزل بعثت الرعشة في غازونال .

قال الجنوبي : وعلى ذلك لن يبقى دين ؟

فرد المعالج مشدّداً النبرة : لن يبقى دين «دولة» ؛ سيكون لكل دينه . ومن حسن حظّنا ان تُحمى اليوم الأديرة فهذا يعيدّ لنا خزينة

---

(١) روبسبير وسان جوست : زعيمان في الثورة الفرنسية أقاما عهد الارهاب وقضيا على خصومهما من المعتدلين (٥ أيلول ١٧٩٣) وأسقطا وأعدما في ٢٧ تموز ١٧٩٤ .

(٤) « الجبليون » الفئة الأشد حماساً في الثورة الفرنسية . وكانت تحتل المقاعد الخلفية العليا في المجلس وكان رئيسها روبسبير .

حكومتنا . كل شيء يتواطأ معنا . وهكذا جميع الذين يرثون للشعوب ، ويصخبون حول مشكلة الكادحين والأجور والذين يؤلفون الكتب ضد اليسوعيين ، والذين يسعون الى تحسين أيمّا شيء .... الشيوعيين والانسانيين والمُحسنين ..... أتعلمون .... كل أؤلئك هم طليعتنا . وبينما نكدس نحن البارود يجدلون هم الفتيل التي ستشعل فيه النار شرارة ظرف مناسب .

وسأل غازونال : وبعد ، فماذا تريد لإسعاد فرنسا ؟

— التساوي بين المواطنين ، رخص جميع المواد الغذائية ، نريد أن لايبقى اناس محرومون من كل شيء واصحاب ملايين ، مصاصو دماء وضحايا .

قال غازونال : تماماً : الحدّ الاعلى والحدّ الادنى .

واجاب المعالج بصراحة : قلت ذلك بلسانك .

وعاد غازونال يستعلم : الن يبقى صناعيون ؟

— ستعمل الصناعة لحساب الدولة ، سنصبح جميعنا اصحاب حق الانتفاع بفرنسا ....

سيكون لكل جرايته كما على سفينة وسيعمل كلّ حسب كفاءاته .

قال غازونال : حسناً ، والى أن تستطيع قطع رؤوس الارستقراطيين

قال الجمهوري المتطرف . وهو يجمع أدواته ، مُنهياً الدعابة بنفسه. أقلّم أظفارهم .

وحيّا بتهذيب بالغ وخرج .

صاح غازونال : هل هذا ممكن ؟ في عام ١٨٤٥ ؟ ....

فرد رسام الطبيعة لو كان لدينا متسع من الوقت لأريناك جميع شخصيات ١٧٩٣ فأمكنك التحدّث اليهم . ها قد شاهدت «مارا» ، فاعلم اننا نعرف «فوكييه ـ تنفيل» و «كولـّو ـ دربوا» و «روبسبير» و «شابو» و «فوشين» و «بارّاس» ، بل هناك أيضاً «مدام رولان» رائعة .

قال الجنوبي : لابأس . في هذا العرض لم يُفتقد العنصر المأسوي .

قال ليون لابن خالته : الساعة الآن السادسة . وقبل أن نصحبك لحضور «البلهوانات» التي يمثلها أودري هذا المساء من الضروري أن نذهب لزيارة مدام كادين وهي ممثلة تشغف جداً مقرِّرك ماسّول وسيكون عليك أن تحاصرها بالمغازلة هذا المساء .

واضاف بيكسيو : بما أنه يلزمك جرّ هذه السلطة الى جانبك سأزودك ببعض التعليمات . هل تستخدم عاملات في مصنعك ؟

ـ بالتأكيد

ـ هذا كل ما أردت معرفته . انت غير متزوج وانت صناعي كبير . . . .

فصاح غازونال : نعم ، لقد حزرت ميلي الأقوى . اني أحب النساء

ـ إذن ، اذا قبلت القيام بالحيلة الصغيرة التي سأصفها لك ستتمتع دون انفاق فلس واحد بالهناءة التي يشعر بها المرء في صحبة ممثّلة .

وعند بلوغ شارع «النصر» حيث تقطن الممثلة الشهيرة لم يكد بيكسيو ، الذي كان يبيّت «مقلباً» لغازونال الحذر ، يكمل تلقينه دوره حتى كان الجنوبي قد فهم ، كما سيتبيّن القارىء ، الغاية المضمرة .

وصعد الأصدقاء الثلاثة الى الطابق الثاني من منزل جميل ووجدوا «جيني كادين» وقد انتهت من تناول العشاء إذ كانت تلعب في الغرفة المؤجرة في الباطن للمعهد الرياضي . وبعد تقديم غازونال لتلك السلطة تذرّع ليون وبيكسيو ، كي يخلّياه وحده معها ، بالخروج لمعاينة قطعة أثاث جديدة ، لكن بيكسيو ، قبل ان يغادر الممثلة همس في أذنها : هذا ابن خالة ليون ، صناعي يملك الملايين ، استنسب ، كي يكسب قضيته في مجلس الدولة ضد المحافظ ، ان يغويك حتى يضع ماسّول تقريره لصالحه .

باريس بأسرها تعرف جمال نجمة المسرح الشابة تلك ولذا لن تُستغرب دهشة الجنوبي لدى رؤيتها . وبعد ان قوبل بما يقرب من البرود غدا موضع رعاية جينّي كادين خلال الدقائق القليلة التي بقيا فيها وحدهما .

قال غازونال وهو ينظر بازدراء أثاث البهو من الباب الذي تركه شريكاه منفرجاً ويخمّن قيمة أثاث غرفة المائدة : كيف ، كيف تُترك امرأة مثلك في مسكن حقير كهذا ؟

— الواقع اني مضطرة الى قبول ذلك . فما سّول ليس غنيّاً وانا انتظر أن يصبح وزيراً .

وهتف غازونال وهو يُرسل زفرة رجل أرياف : يا له من رجل سعيد .

قالت الممثلة في سرّها : حسناً . ان أثاثي سيتجدّد . سأستطيع بالتالي منافسة كارابين .

قال ليون لمّا عاد : اسمعي يا طفلتي العزيزة . ستأتين هذا المساء الى بيت كارابين اليس كذلك ؟ سنتناول هناك وجبة الليل ونلعب «اللانسكينيه» .

قالت جينّي كادين برقّة وسذاجة : هل سيكون هذا السيّد هناك ؟

قال غازونال وقد بهره ذلك النجاح السريع : نعم يا سيدتي .

واضاف بيكسيو : لكن ماسّول سيكون هناك أيضاً .

فردّت جينّي : وما اهميّة ذلك . لكن لننطلق يا اعزائي ، يجب أن أذهب الى مسرحي .

وأخذ غازونال بيد الممثلة حتى العربة التي كانت تنتظرها وراح يضغطها ببالغ حنان جعل جينّي كادين تردّ عليه وهي تحرك اصابعها : هيه ، ليس لديّ يد بديلة .

ولما صار غازونال في العربة حاول ضمّ بيكسيو من خصره وصاح : لقد علقتْ ، يا لك من ماكر ماهر . . . .

فأجاب بيكسيو : هذا ما تقول النساء . . .

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف ، بعد حضور المسرح ، حملت عربة الاصدقاء الثلاثة الى بيت الآنسة «سيرافين سينيه» المعروفة أكثر باسم «كارابين» ، وهو أحد تلك الاسماء المستعارة التي تتخذها الماجنات الشهيرات أو التي تُطلق عليهن ، الذي ربمّا جاء من كونها تقضي دائماً على «صيدها»(١) .

---

(١) معنى « كارابين » البندقية . وما عبرنا عنه « بالصيد » هنا هو في النص الفرنسي « pigeon » ومعناه الأصلي « الحمامة » ومعناه المجازي « المغفل » الذي يسهل خداعه.

كانت كارابين التي غدت شبه ضرورة للمصرفي الشهير «دوتييه»، تسكن في ذلك الحين منزلاً بديعاً في شارع «سان – جورج». ان في باريس بيوتاً لايتبدل تخصيصها، وذلك البيت سبق له أن ظلل سبع بغايا متواليات. كان أحد الصيارفة قد اسكن فيه حول عام ١٨٢٧ «سوزان دوفال – نوبل» التي اصبحت في ما بعد «مدام غايّار».و «إستر» الذائعة الصيت جعلت البارون ذونوسنجن يرتكب فيه الضلالات الوحيدة التي اقترفها. وتألّقت فيه «فلورين» ثم تلك التي كان يسميها الناس تفكّهاً «المرخومة مدام شونتز». واشترى «دوتييه» وقد اضجرته زوجته ذلك المنزل الصغير الحديث وأَحلّ فيه كارابين الشهيرة التي كانت تشكّل بفطنتها الوقّادة وتصرفاتها الجريئة وانعتاقها المحبّب تعويضاً من متاعب حياته البيتية والسياسية والمالية. وسواء وُجِد دوتييه أو كارابين أو لم يوجدا، كانت المائدة جاهزة وعامرة لعشرة أشخاص كل يوم. كان الفنانون والادباء والصحفيون والمترددون على المنزل يتناولون طعامهم فيه. وفي المساء كانت تُصفّ مناضد الميسر. كان العديد من اعضاء مجلس الاعيان والنواب يقصدونهم إبتغاء لما يُشرى بالثمن الغالي في باريس: الاستمتاع. وكانت النسوة ذوات الطباع الشاذّة، تلك الشهب في السماء الباريسية العصيات على التصنيف يعرضن هناك بدائع زينتهن. كان كلٌ هناك بالغ الطرافة إذ يسعه قول كل شيء ويقول كل شيء. كانت كارابين، منافسة «مالاغا» التي لاتقل عنها شهرة، قد فرضت نفسها أخيراً وريثة لمنتدى فلورين التي غدت «مدام ناثان»، ولمنتدى «توليا» التي غدت «مدام» دوبرويل، ولمنتدى مدام «شونتز» التي غدت «السيدة زوجة

الرئيس دورونسيريه» . ولم يقل غازونال حين دخل سوى كلمة واحدة : «هذا أبهى من قصر الملك» . وأسرت الحرائر والحمائل والمقصّبات والمذهبات والتحف الفنية الوافرة عيني الريفي بحيث لم يبصر جينّي كادين في حلّة مهيبة ، متستّرة بكارابين ترقب مجيء صاحب الشكوى وهي تتحدث اليها .

قال ليون لكارابين : يا ابنتي العزيزة ، هذا ابن خالتي ، صاحب مصنع هبط عليّ من «البيرينيه» هذا الصباح . لم يكن يعرف شيئاً بعد عن باريس ، وهو محتاج الى ماسّول لأجل قضية في مجلس الدولة. لذلك أجزنا لنفسينا ان نستصحب اليك السيد غازونال راجين ان تتركي له كامل عقله . . . .

قالت كارابين وهي تعتبر غازونال بنظرة فلا تجد فيه ما يستدعي الاهتمام : كما يشاء السيد ، النبيذ غالٍ .

ولم يستطع غازونال ، المأخوذ بالزين الفاتنة وبالأنوار الساطعة وبالحلّي المتلألئة وبجلبة التجمعات المنضمة التي خالها تتحدّث عنه، غير ان يغمغم : سيدتي . ... سيدتي . .... بالغة اللطف .

وسألته ربّة المنزل باسمة : وماذا تصنع .

وهمس بيكسيو في اذنه: قمائش حرير ... واهدها قطعة مطرزة.. . فقال :

— قما .... قم .....

— قما قم ؟ .... يا شقوتك يا كادين ! لقد غرر بك ، وقعت على صانع جرار يا صغيرتي .

وأتمّ غازونال كلمته وقد ادرك ان عايه تقديم مقابل لكلفة عشائه : قمائش حريرية وسيسعدني جداً جداً ان اهديك ثوباً ، وشاحاً ، طرحة . . . . . .

فردّت كارابين : ثلاث قطع ؟ حقّاً إنك ألطف مما يوحي مظهرك .

وسألته الممثلة : وأنا ، ماذا سيكون لي ؟ .....

فأجاب غازونال ، وفي خاطره أن تقديم كل شيء يعني عدم اعطاء شيء : جميع ثروتي

ودخل ماسّول وكلود فينيون ودوتييه ومكسيم دوتراتي ونوسنجن ودوبرويل ومالاغا والسيد ومدام غايّار وفوفينه وحشد من الناس .

وبعد حديث متعمق مع صاحب المصنع حول القضّية قال له ماسّول ، دون أن يعده بشيء ان التقرير لم يوضع بعد وان في وسع المواطنين الركون الى معرفة ونزاهة واستقلالية مجلس الدولة . وأمام ذلك الجواب الفاتر الرصين وجد غازونال الذي تملّكه الغيظ واليأس لازماً أن يغوي جيني كادين(١) التي بات مغرماً للغاية بها . وترك ليون دولورا وبيكسيو ضحيتهما بين يدي اعظم النسوة شيطنة في ذلك المجتمع الغريب ، لأن جيني كادين هي النظيرة الوحيدة «للديجازيت» الشهيرة . وعلى المائدة استلب غازونال بالآنية الفضية التي صنعها «بنفينوتو سيلّيني»(٢) المعاصر ، «فرومان — موريس» ، والتي كان

---

(١) انتقاماً من ماسول .

(٢) بنفينوتو سيليني (١٥٠٠ — ١٥٧١) صائغ ومثال (بالذهب) ونحات مرمر ايطالي من أشهر وآنق فناني عصر النهضة وفرومان — موريس (١٨٠٢ — ١٨٥٥) صائغ فرنسي أدخل الطراز الرومنسي في صياغته .

محتواها يوازي بكلفته فوائد ثمن الحاوية . وحرص الطنّازان على الجلوس بعيداً عنه . لكنهما تابعا بعين ماكرة تقدّم خطّة الممثلة الفطنة التي أطعمها الوعد الخادع بتجديد اثاثها فكرست جهدها لاستصحاب غازونال الى بيتها . هذا وما من خروف في «عيد القربان» كان أكثر مطاوعة لأن يقوده القديس «يوحنا المعمدان» من غازونال في انقياده لتلك الساحرة .

وبعد أيام ثلاثة لم ير فيهـــا ليون وبيكسيو غازونال ذهبا اليه في فندقة حول الساعة الثانية ظهراً .

قال له ليون : اعلم يا ابن خالتي ان قراراً صدر يُكسبك قضيتك .

قال غازونال الذي شخص بعين حزينة الى صديقيه : بكل أسف ، اني اصبحت جمهورياً .....

قال ليون : وماذا تقصد بقولك ؟

فأجاب غازونال : لم اعد املك شيئاً ، ليس عندي حتّى ما ادفعه لمحاميّ اتعاباً . ان عند مدام جينّي كادين مني أسناداً بمبلغ تربو على ما عندي من أموال .

– الواقع ان كادين مكلفة جدّاً لكن .....

فرد غازونال : أوه ، لقد تمتّعت بمثل ما انفقت . آه ! ما أروعها من امرأة في الحقّ إن الأقاليم لايمكن أن تباري باريس . ساعتزل في «التّرابْ»(١)

قال بيكسيو : حسناً ، ها قد عدت الى صوابك ، إعترف إذن بعظمة العاصمة .

وصاح ليون وهو يناول غازونال أسناده : وعظمة رأس المال(٢).

---

(١) التراب Latrappe : دير مشهور في فرنسا يلتزم رهبانه بالتقشف الصارم (حتى الإمساك عن الكلام) وبالممارسة الدقيقة للشعائر الدينية .

(٢) هنا لعب أخير بالكلام : فالعاصمة هي **Capitale** ورأس المال **Capital** ولفظهما طبعاً واحد .

ونظر غازونال تلك الاوراق بعين شدهه .

قال بيكسيو : لن تزعم اننا لانُحسن الضيافة فقد علمناك وأنقذناك من الفقر واطعمناك و . . . . . سلّيناك .

وأضاف ليون و«بالبلاش»(١) .... وقام بحركة الصبيان عندما يريدون التعبير عن عملية «النشل» .

باريس

تشرين الثاني

١٨٤٥

---

(١) « مجاناً » بالعامية مقابل àloeil العامية الفرنسية .



٣٥٠٠ ط١ ١٩٩٣/١/

صـدر عـن وزارة الثقافـة
من المجموعة الكاملة لروايـات بلـزاك
مترجماً إلى اللغة العربية ما يلي :

١ ـ الخليلة المزعومـة .
٢ ـ رواية الكولونيـل شابير ورواية هونورين .
٣ ـ مجـد وشـقاء .
٤ ـ الثـأر .
٥ ـ الأب غوريو .
٦ ـ جنة الرمان ـ المرأة المهجورة ـ فاجعة على الساحل .
٧ ـ الولد الملعون .
٨ ـ المارنا ـ المسـوق ـ السياف .
٩ ـ وداعاً ـ النزل الاحمر .
١٠ ـ الممثلون الغافلون .

النص : ترجمة صلاح الدين برمـدا

والمقدمات : ترجمة المهندس ميشيل خوري

الطبع وفـرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٣

سعر النسخة داخل القطر
٤٥ ل.س

في الاقطار العربية مايعادل
٩٠ ل.س